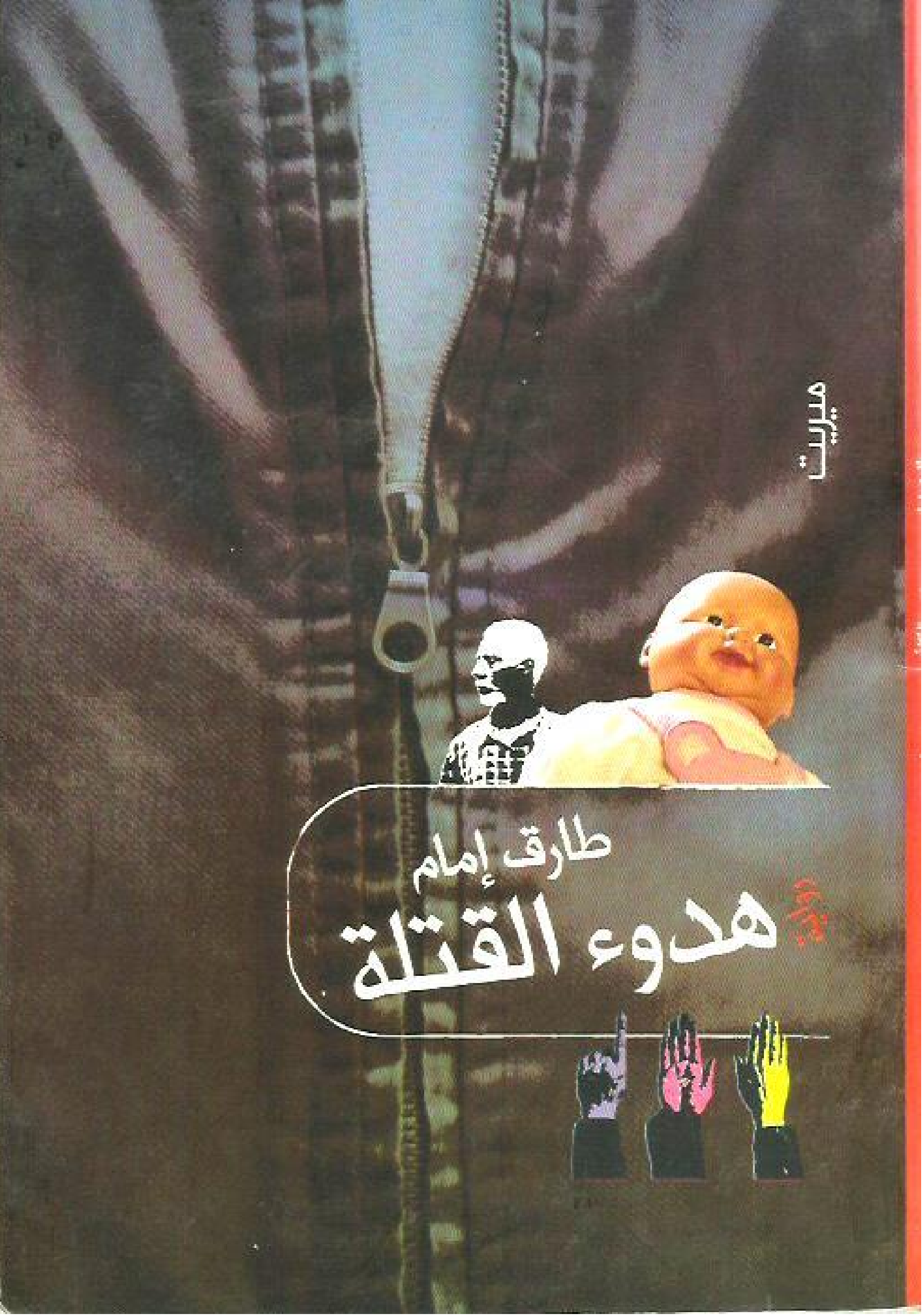

ميريت
طارق إمام
هدوء القتلة

هُدوء القتلة

هدوء القتلة

رواية

طارق إمام

الطبعة الأولى٠٠٧

(c) دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١ (٢٠٢)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف **أحمد اللباد**

المدير العام **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٠٠٧/١٩٧٩٩

الترقيم الدولي: **977-351-376-9**

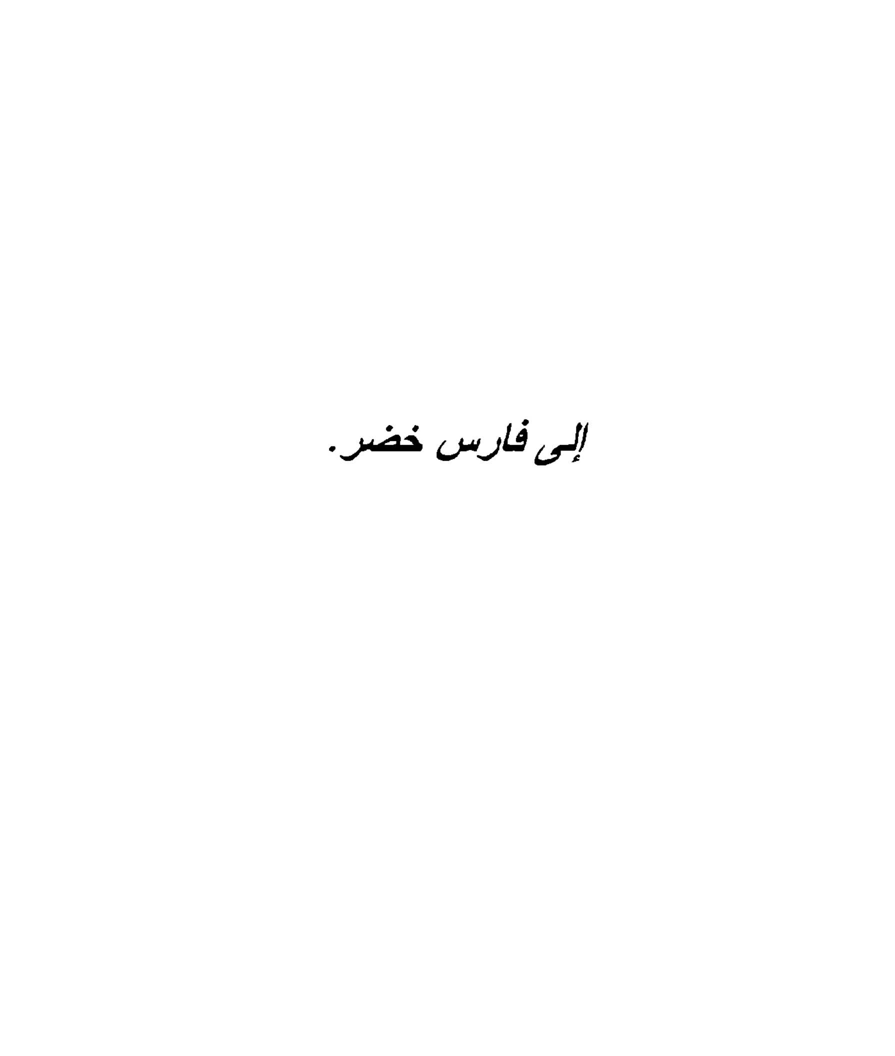
طارق إمام

هُدوء القَتلة

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٨



إلى فارس خضر.

وتـــراجعوا في خوفٍ أول الأمر، وأسمونِي الخطيئة ورأونـــي آية نذير، ولكنهم حينما اعتادوا علي رُقتُ لهم، وفاضت مفاتني الخلابة فأحبَّني أشد من عاداني، لا سيَّما أنت، إذ كثيرا ما رأيت ذاتك في ذاتي، وصورتك في صورتي فتولّهت بي، ونشدت متعة معي في الخفاء.

جون ملتون

الفردوس المفقود

و خذ بقيةَ ما أبقيت من رمَقٍ
لا خير في الحُبِّ إن أبقى على المُهَجِ

ابن الفارض

1

تبدو القاهرة لمن لا يعرفها مدينةً شديدة الضخامة، غير أن القتلة فقط وهُم حالمون بالضرورة يُدركون أن ذلك غير صحيح.

صدقت دائماً أن تاريخ الدماء هُنا بدأ من حكاية ناسك، كان يسكن قبواً قامت فوق أطلاله فيما بعد تلك البناية الزجاجية الضخمة التي صارت رمزاً للمدينة الشاحبة. البنايةُ التي يمكنك أن تراها من أي بقعة، والتي أقف الآن في شرفة طابقها الثالث والعشرين.. أراقب الصباح من خلف النوافذ بوجه غائب، يفتش في البيوت البعيدة عن بقاياه. ربما أتطلع أيضاً للطائرات الورقية التي تصطدم كل لحظات بالواجهة، لتخدش في كل مرة قطعة جديدة من جسدها. نعوشٌ صغيرة وهشة تطارد الهواء الشاسع، يلتصق بعضها بالزجاج قبل أن تنفلت مدفوعة بالخيط.. كأن يداً بعيدةً لإله مغدور تُحركها.

كان الناسكُ حليقا، بما يليق برجلٍ رأى الله كثيراً في مناماته وعرف أقصر الطُرق لتجنبه. في أذنهِ اليسرى قرط معدني على

هيئة ثعبان مجنح يتدلى حتى كتفه، ومكان أذنه اليسرى التي سقطت ذات يوم فجأة، بعد أن تآكلت من طول التنصت على غرف المدينة المغلقة ـ ثُبِّت قماشة.

كانت الفئران تتقافز في حجره، تلتهم فتات الخبز الذي يتبقى من طعامه، وبيده المقدسة تعوَّد أن يُملِّس على فرائها المنحولة، ويتحسس ذيولها المتطاولة الملتوية المنفلتة على الدوام من بين أصابعه. من أنوفها الدقيقة تتساقط نقاط الدماء وتذوب في جلبابه، ولكنه رغم ذلك لم يكن يخشى الطواعين.

ليست الفئران وحدها شريكة صباحاته.. يخرج النمل من جحوره وتتمدد السحالي على الحوائط، ومن الكوة المفتوحة في الجدارِ الذي يسند إليه ظهره تدخل النسور مدومة الهواء الشحيح إنذاراً بموتٍ قادمٍ أو تنبيهاً بجثمان فاحت رائحته دون أن ينتبه الناسك الغارقَ في أحلام يقظته.

في أحيان كثيرة كان يمد رأسه من تجويف الكوة غير منتظمة الحواف. كانت الفتحة المرتجلة بحجم رأسه بالضبط، لذا كان يجد صعوبةً حقيقية عند إدخاله من جديد، ويعتقد لوهلة لكن دون فزع أن رأسه سيظل هكذا، يطل على الحياة، بينما جسده في الداخل يتيبس ويشيخ دون أن يقوى على فعل أي شيئ.

كان يتأمل المدينة التي صارت مكاناً آخر غير الذي وطأته قدماه منذ ما يزيد على ألف سنة. لقد كانت ـ حين جاء حافياً تحت شمس قوية أشبه بدير كبير خالٍ لا يحتاج الناس فيه إثماً كي يتعذبوا.

كانوا يذبلون فجأة، ويستيقظ كل صباح على حفرة جديدة تستقبلها الأرض ليُسكنوا جثماناً جديداً سيضاف إلى تعداد الأشباح التي تطوِّق المدينة. وكانوا رغم ذلك يبتسمون طوال الوقت.. ولكنه كان يشخص مثلما أفعل الآن كما أعتقد فوق صفوف البيوت المتراصة الواطئة، محركاً كف يده كمن يُلوِّح إلى مسافر يعرف أنه لن يعود، بعد أن نقلوا كل الرفات إلى مكان بعيد عن تخوم المدينة، وصاروا يتحركون مثل قطع صغيرة معدة للحياة في لعبةٍ غامضة.

كلَّ صباح، كان يمد أصابعه الخشبية النحيلة نحو المجلد الضخم: تاريخ غرامه السري. كان جميع من يتلصصون عليه أثناء تفحصه له بوجل بينما تُغرِق دموعُه جلبابَه المهترئ يظنونه كتاباً مقدساً. كانت هذه اللحظات هي الأشد سرية في صباحاته، حيث يغلق بابه على نفسه، مستعيداً هيئة الديكتاتور الذي كانه ذات يوم، والذي كان قادراً على تحطيم جدران المعبد، والمدينة ذاتها، والعالم، بمجرد نفثة غضب موجهة للسماء دون وسيط.. ليأمر بطرد الفئران وقتل الضوء الذي يَتسلل ليخون وصاياه.. يحنط الزواحف على حائطه بنظرة ويحيل النمل المتسارع في هربه لعلامات سوداء ميتة. وعندما يصير توحده نهائياً، يبدأ يتصفح الأوراق. يتحسس وروداً شاخت وفراشات هشة يكفي زفير ضعيف للإطاحة بتاريخ صمودها.

طالما رأى أشياءً رؤية العين كانت تتحطم على صخرة الإفاقة من أحلام يقظته، كالبنت النحيلة التي تعبر كشبح إلى غرفة

نومه. تترك وردة تحت وسادته بينما ترتبك الأحلام قليلا من جراء التحريك الخفيف لرأسه ويمد أصابعه محاذراً ألا تجرحه الأشواك أو تباغته اليقظة، ولكنه كان يفيق ليكتشف أن الأوراق الحمراء المتفتحة تحت وسادته ليست سوى آثار لعابه الدموي. لعابه الدموي هذا نفسه تمنى أن يكون مسموماً، ليضمن إن قبّل امرأة أن يكون صاحب آخر شفتين تتذوقهما في حياتها. ولكن، كان يقول: ماذا لو ابتلعت أنا السم؟.. لن تخسر هي حينها سوى بعض الدماء على شفتيها مقابل قبلة مقدسة.

هكذا ظل يتوهم حروباً لم يخضها، ويحتاط لأشخاصٍ لن يراهم أبداً، ووصلت ألفته بجدرانه حد أنه صار قادراً على تحريك الحوائط بمجرد النظر إليها، وهدمها تماماً في ليالي مشيه الأبدي أثناء نومه، وهو يحمل مجلده، باحثاً في وجوه المدينة عن امرأة تصلح لأحلامه القادمة.

ترك الرجل مخطوطه الدموى المقدس، كتابه الذى ظنه ذات يومٍ سرياً.. كما ترك نسلاً كثيراً في أرجاء المدينة، أبناءً وأحفاداً يحملون وجهه، عينيه الملونتين وصوته المبحوح جميعهم قتلة متوحدون غارقون في منامات خطرة مثله، لا يرون وجه الله سوى بعيون مغلقة.. وقد عرفتُ دائماً ـ دون أن أحتاج لجهد كبير أنني واحد من هؤلاء.

2

تعوَّد جابر في المرات التي كان يمر فيها بـ "ليل الإسكافي- أن يترك له ساقه الصناعية كلها، ويمشي متعكزاً على عصاه، عائداً إلى بيته.

هذه الساق اليُسرى هي خلود جابر الحقيقي: ساق قوية، ناعمة ومصقولة، لن تشيخ أبداً، ولن تصحبه إلى مقبرته.. وحتى إن فعلَت، لن تفنى، لن يهزمها التراب.

ساقه التي لا تؤلمه، لا تعرفها الكدمات ولا تنز منها الدماء. أما ساقه اليمنى..النحيفة المشعرة، ساقه التي تنتمي له تماماً.. فيترك قدمها حافية، تدوس على قطع الزجاج وحصى الشوارع. قدم مجربة مدماة تليق بشخص مثله.

تعوَّد ليل بدوره أن ينهمك في تأمل تلك الساق الميتة التي يتركها له صاحبها في كل مرة، كلعنة خفية كانت تترك خلفها ليالٍ عامرة بالكوابيس.

وكان ليل يندهش دائماً، بينما يخلع عنها فردة الحذاء، أن لقدمها الحافية رائحة عفنة رائحة قدم بشرية.

قرر ليل كثيراً أن يقتل جابر. تمنى لو كان لا يزال محتفظاً بمطواته العتيقة النائمة الآن، ليرفعها لحظة اقترابه منه ويتركها تذكاراً في عنقه، ثم يهرب. فعلها ليل كثيراً قبل ذلك.. قاتل محترف لم يعد يذكر حتى عدد قتلاه. أقنعة غائمة، متوحدة، بابتسامات غير مبررة.. ابتسامات من غادروا الدنيا دون أن يقرروا ذلك ودون أن يعترضوا عليه بحسم في الوقت ذاته. كانوا فقط يهاجمونه في أحلامه التي كان يستيقظ معها غير مصدق أنه لا يزال على قيد الحياة.

أخبرني ليل بنواياه بينما يؤكد أنه لم يعد ينام. يجيء ضحاياه القدامى في الأحلام حاملين جميعاً ساق جابر الضخمة الملساء ثم يدقون بكعب حذائها القوي المليء بالمسامير التي ثبتها ليل بالذات رأسه حتى يتناثر.

لم أكن أعلق، وكنت أريد أن أخبر ليل أنني أيضاً قاتل، قاتل شاب متوحد.. وأنه من خبرتي المحدودة فإن قتله لجابر لن يحل المشكلة.. على العكس، ستزداد تعقيداً، لأن جابر سيأتي بعد ذلك بنفسه في مناماته، سيرفع ساقه بيده القوية هابطاً بها على رأسه ليقتله في الواقع.. وليستيقظ ليل مفاجئاً بفتات جمجمته على ملاءة السرير.

بيت ليل ليس سوى غرفة في قلب المقابر، ويعتقد الكثيرون أن جابر ليس سوى شبح أزرق يزوره في صباحاته.. خاصة أن أحداً لم ير جابر سوى كحاملٍ للنعوش، يزك قليلاً بينما "يؤاجر

بقدمين غير متساويتين: واحدة غائصة في الحصى والأخرى معزولة في فردة حذاء عالية الكعب.. لتهتز النعوش مع اهتزازه تحت أركانها. يعرف ليل ذلك، وربما لهذا السبب فكر ليل كثيراً، عرف أن قتله لجابر سيكون آمناً: إما أن تخترق المطواة جسده الشبحي ليتأكد أنه ليس سوى حلم يقظة.. وإما أن تنفجر الدماء مخلصةً إياه من ذلك القاتل الشخصي. لم يكن ليل يخاف من الحل الثاني، ولكنه كان يموت رعباً إن هو قتل شبحاً، لأن لعنة المنامات بعدها ستتحول إلى انتقام معلن سيتحول معه الإسكافي الخائف إلى مجذوب.

"إذا أردت الإنتقام من ألد أعدائك دعه يحيا" هكذا تركت لديَّ الحياةُ بعض حكمتها. لم أعرف شخصاً قبل ذلك عاقَبَه الموت.. بينما أستطيع أن أحصي لك عشرات بل مئات.. آلاف.. ملايين الأشخاص ممن تكفلت بهم الحياة.

على أية حال لا أستطيع أن أقول ذلك أمامه. على القاتل خاصة ممن ينتمون للنوعية النادرة التي أنتمي إليها أن يخفي فلسفته، لأن فلسفة القاتل هي نفسها آثار جرائمه.. اللحظة التي يستطيع فيها شخصٌ أن يعرف كيف تفكر وليس كيف تنفذ جرائمك هي دائماً اللحظة التي تموت فيها، وهو أيضاً.. لأن من يكشف عن قاتل حقيقي هو بالضرورة ـ وكما تعلمنا قاتلٌ مبيَّت.

ليل سَفَك دماءً كثيرة قبل ذلك.. بحنكة،حتى أن يده أبداً لم تلوث. أعرف جيداً يدَ القاتل الأصيل: إنها تشبه على نحوٍ ما يدَ عازف. أناملها مخنثة، أطرافها ناحلة ووردية، لابد أن تكون

أطرافها وردية لها ذلك اللون الذي لا تخطئه عين خبيرة يدُ القاتل تحتفظ دوماً بتاريخها، لأنها لا تملك سواه.. وهذا هو الفارق الجوهري، وربما الوحيد، بينها وبين يد الشاعر: فرغم التشابه الرهيب بينهما إلا أن الثانية تبقى آمنة، نعم آمنة، لأنها بينما تستحضر لحظات زائلة.. تكون الأولى بالتزامن منهمكة بكل إخلاص، في تأكيد حيوات مبتورة.

أعرف الاثنتين بشكلٍ شخصي. يدي اليمنى تستريح في قفازها القطيفي الداكن.. تبدو أصابعها المتطاولةُ أشباحاً مشهرة، أما اليسرى فأكتب بها القصائد. عارية دائماً وملوثة بالأحبار. مبتردة ومرتعشة عكس أختها المتدثرة الواثقة.. خاصة أنني قاتل شتائي، أحب التحرك في الليالي المظلمة الباردة. أقدم الطعام للقطط والسم لأصدقائي. أعبر بين بشر قليلين بينما يتساقط المطر بلا هوادة ليغرق سترتي الجلدية وكوفيتي التي تخفي تجاعيد الرقبة، التجاعيد التي تليق بقاتلٍ شاب أثقلته الحيوات. يفسد المطرُ السيجارة في ركن فمي، ويُشوِّشُ رؤيتي بينما يحوّل أحلام يقظتي لجثة كبيرة بلا دماء.. بلا نظرة رعب ولا شحوب يدفع يدي اليسرى للتململ.

أعبر كأي شخص، وقد يصطدم بي أجبن رجل، يؤلم عظمة كتفي دون كلمة اعتذار.. دون أن يتخيل أن هذا الشبح الهرِم ـ ذي الثلاثين عام ـ الذي غادره، يمتهن الطعنات.

يدي اليمنى خشنة، ليس بفعل القتل بالطبع، ولكنها اليد التي أعمل بها في الحقل.. أحمل بها الفأس دون أن أجرؤ على دعوة اليُسرى للمشاركة. أجعلها مصيدةً للأشواك لتستريح الوردة بلا نصل في اليد اليسرى، الناعمة، المرصعة بالخواتم، البذخة، المترفة، التي أخشى على يتمها من بعدي. أُنفق كل أجري على تزيينها، أغذي نرجسيتها، أطيل أظافرها وأنسقها وأطليها.

أستطيعُ أن أقول - وليرحمني الله ويغفر لي إنني أقهر يدي اليُمنى لأغذي كبرياء يدي اليسرى. أخاطر بحياة اليُمنى لصالح خلود اليُسرى.

بيدي اليُمنى أصافح أعدائي، وأمنح التحية لكل من أكرههم، وأقتل من لا أعرفهم. يدٌ تحمل آثار ملايين الأشخاص في راحتها: خليط روائح ولزوجة عرق وعطور ودماء.. بخلاف اليسرى، النقية: يدي التي لا تحمل سوى رائحتها ولا تصافح سوى الهواء الملاصق لمدارها.

أحب الاثنتين بالقطع، ولكن هكذا علمتنا الحياة: لابد دائماً أن يموت أخٌ ليحيا توأمه.

أنا القاتل الذي يخاطر بحياته ليترك للعالم قصائده كما يبغي أن تكون: كتبتها يدٌ بلا تاريخ، بدماء الضحايا، على نفقة أخت كادحة.. وعما قليل سينتهي ليل من إصلاح كعب حذائي كإسكافي مخلص، وسأؤكد له أن جابر ليس سوى شبح بدليل أنني لم أره بينما كانا منهمكين في حديثهما: كان ليل في الحقيقة يخاطب الهواء.

*

سـأتجه إلـى غـرفة شحيحة الضوء، في أحد البيوت، أقتل ضـحية جديدةً في سريرها. أترك سطراً جديداً من الشعر القاني علـى مـلاءة سرير، على حائط، أو بامتداد الأرضية.. سطر في قصيدتي النهائية المكتوبة بامتداد صفحات المدينة المفتوحة أمامي ككـتابٍ لم يُكتب. بعدها سأنظف نصل المطواة من آثار الطعنة.. لتـنهمكَ يـدي اليسرى في كتابة قصيدة جديدة في ديواني، وقربَ الصباح أنام تاركاً اليدين لشجار الليل الذي يقطعه استيقاظي عادةً ؛ بينما توشك إحداهما أن تفتك بالأُخرى.

3

لو كان جابر شبحاً ما سالت منه كل هذه الدماء.

دسســـت مطواتـــيٍ أولا فـــي ساقه الوهمية فصرخ وانتفض جســـده. عـــندما وجهت طعنتي الثانية إلى ساقه اليمنى، المعذبة، وسالت الدماء غزيرة منها، أغلق عينيه متوحدا. فكرت أن أعطيه المطـــواة وأقـــول له هيا.. جرب يا جابر الآن.. كفكف دماءك ووجه طعنة ليدي اليسرى ثم أخرى لليمنى. أريد أن أعرف أيهما ســـتؤلمني أكثر. ربما تنز الدماء من إحداهما دون الأخرى. ربما أكتشف على يديك بالذات أنني عشت حياتي كلها بيد غير حقيقية.. ابنة غير شرعية. فكٍر معي يا جابر.. يا شبح النهارات الأزرق أيهمـــا ســـتكون صدمتي فيها أكبر ؟ لو كانت اليسرى فذلك يعني أنني لست شاعرا كما ظللت أتوهم.. هذه القصائد ليست لي.. وكل ما أنفقته عليها من عطور وحلي كعشيقة ذهبت هباء.. ولو كانت اليمنى.. آآآآه..الكادحة الشقيانة.. ألا يكفيها ما تعانيه ؟ هل تتحمل صـــدمة اكتشـــافها أنها لقيطة ؟ أنني التقطتها من شارع لتحيا مع ابنتـــي الحقيقـــية التي من صلبي ؟ وستبرر وقتها تفضيلي لأختها

علـــيها كل هذا العمر. في هذه الحالة أيضا سأصير برئياً من كل الدماء التي أسالتها.

لا يـــا جابر. لن أعطيك المطواة. لن أحتمل مواجهة الحقيقة. مـــا الفرق بين أن تعرف وألا تعرف ؟ الفارق الوحيد هو أن من يعرف يظل يتألم. إليك إذن بطعنة في فم المعدة. لابد أن أتأكد أن لك أحشاء. ذلك هو البرهان الجوهري على أنك لست طيفا يطارد لـــيل لـــو تأكدتُ أن ليل كاذب أعدك أن أقتله، لكن ليس لأنه كـــاذب. لابـــد أن تُقدِّر يا جابر. ألم تطّلع على دفتر قصائدي في المقهى المجاور لبيتك ؟ ألم تطلب بنفسك أن أطلعك على قصيدة ؟ إلـــيك بهـــا إذن.. ربمـــا لم تكن تعرف يومها أن قربان قصائدي أجســـاداً دافئة. سأهدي الديوان عندما أنتهي منه لقتلاي بالترتيب. ســـتجد الشـــرطة أسماء القتلى في صفحة الإهداء وكذلك بامتداد القصـــائد كل قتيل يحيا في قصيدة، وسيصلون إلي بسهولة وهذا بالضـــبط ما أريده. ستكون مهمتي في هذا العالم قد انتهت بخروج الديـــوان للوجـــود. ستموت يدي اليسرى التي كتبت واليمنى التي قـــتلت. ستعيشان في بطالة. وجودي سيكون انتهى. أنت طلبت يا جابـــر، وطلـــبك مجـــاب، خاصةً وأنك تشبهني كثيرا.. مشغول بقدميك مثلما أنا مشغول بيدي. يقول الناسك ***إذا شككت في شبح وجِّه له طعنتك لأنه قد يكون لعنتك.***

التقطنـــي جابـــر مـــن ظهيرة الشارع بينما أبدأ رحلة التعداد الســـكاني، رحلتـــي المقدسة كموظف صغير مخلص في الجهاز المركـــزى للتعبئة العامة والإحصاء. كنت أسأل عن ليل الذي

أخبروني أن مكان جلسته تحت شجرة وارفة، بعد أن فشلت في العثور عليه في غرفته بمقابر البساتين طيلة ستة أيام من الزيارات اليومية. يومها اقترب مني جابر.

- حضرتك بتدور على ليل" الصُرماطي ؟

أيوه.

- زمانه جاي.. ابن القحبة مبيِّت رجلي معاه من امبارح.

لم أرُد. اكتشفت ساقه الخالية عندما نظرت إلى قدميه، وارتجفت.

حضرتك عايزه في إيه ؟

- حاجة تَبَع التعداد.

عارف الليلة دي.. دي بتتعمل كل كام سنة.. كتّر خير الحكومة ما بتنساش الناس أبدا.

عارف ؟ لما عملوا الموضوع ده آخر مرة كانت المرحومة لسه عايشة.

- مين؟

رجلي.. ههههههههه.

- انت ليه لابس قميص بكم وقافل الياقة ؟ دا الجو مولع.

ضايقني تطفله. واستبداله كلمة حضرتك ب انت

أعرف هذه النوعية عن ظهر قلب، بعد دقائق سيبدأ حاجز الاحترام الوهمي في الذوبان. هممت بالانصراف ولكنه باغتني بسؤال أغرب.

انت مسيحي ؟

لأ.

اصل الكفاتسه اليومين دول بيدارو إيديهم...... وحضرتك ليه اخترت منطقتنا بالذات ؟

ها قد عاد ل" حضرتك من جديد. هذا سلوك جيد.

أنا مُكلَّف.

لو كنت موظفا في الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، فستعرف أي شخص أنت، وأي مهمة يمثلها عمل التعداد السكاني، والذي لا يتاح للعاملين فيها إلا مرات معدودة في العمر. التعداد يتم مرة كل عشر سنوات. وبحسبة بسيطة، فإن أوفر الموظفين حظا لا يشهد هذا الحدث سوى أربع مرات على الأكثر في تاريخه الوظيفي كله. ورغم أن أمامي ثلاث مرات في الثلاثين عاما القادمة.. إلا أنني عرفت دائما أنني لن أشارك في هذا الطقس المقدس سوى مرة واحدة في حياتي.

اسمي في المهمة المقدسة *معاون تعداد*، فرد في طابور مكلف. يراقبني *مراقب تعداد*، يفتش عليه *مفتش تعداد*. ومثلما أنظر لأعلى لرؤسائي، فإن هناك من أنظر عليهم من أعلى: *العدادين*. مراهقون تخرجوا توا، يؤدون "الخدمة العامة" هذا جيل محظوظ. كل عشر سنوات تحظى دفعة واحدة بخوض هذه التجربة المثيرة. يدخلون البيوت. يبتسمون لأشخاص لا يعرفونهم. يسألون عن كل شيء. يفعلون ذلك في الصباحات، ثم يجتمعون هنا. يفرغون الناس في استمارات الورق المقوي.. بين يدي. قمت

بالــرحلة قــبلهم، مسحت أسماء الناس في الشياخة التي تم إيكالها لـــي، وتبقت لهم التفاصيل. لا مكان لخطأ. الخطأ يعني شخصاً لم يعــد موجــوداً. بجــرة قلم منك، بلحظة سهو، تحرم شخصا من الحــياة، تجرده من صفة مواطن. الناس في هذه المهمة عُهدة، يــنامون فـــي المساء في عمق الأدراج، في الخانات الضيقة. أنا مســئول عن شياخة الأزهر. مفاتيحها في جيبي. ليكن. ***التفاصيل أهــم شــيء يا أصدقائي. ادخل البيت ولا تنتظر لحظة خروجك منه. ادخله كأنك ستموت فيه. أنا هنا، مسئول عنكم، وهناك من هم مسئولين عني، وكلنا في النهاية سنُسأل.***

أعبــر فــناء المدرسة التي قرروا اجتماعنا فيها للانتهاء من أعمال التعداد كمن يقطع صحراء. أدهك بقدمي النبتات الشيطانية داكــنة الخضــرة، وتتصــاعد حفــنات التــراب الهشة لتلتصق بالبنطلون. شهر كامل في صيف قائظ. الفصول الدراسية تضيؤها الشــمس القــوية. يــبدأ عملي هنا في الرابعة، بعد انتهاء مواعيد العمــل الرسمية. يكون العدادون قد انتهوا من حصيلة يوم جديد. تغرب الشمس بينما تعمل الأيدي على ملء الاستمارات. ينادونني ب "أستاذ سالم" يسعدني ذلك. أنا كبير هههههههه. بعض الفتيات يقلــن لــي يــا مســتر. في التاسعة يغادر العدادون ويتركونني للصمت المريب، تحت الضوء الأصفر الشاحب للمبة الوحيدة التي تضــيء الفصــل. أقرأ الاستمارات نصف غائب. أُقلَب الحيوات، أراجــع البــيانات، بينما يصلني صوت الصرير الخافت لحشرات

اللـــيل، فـــي أركان الفناء المعتمة، والتي كانت تشعرني* أنني في زمن آخر أقرأ سيرة سرية لحفنة أشباح.

- ماتاخـــد بياناتي بالمرة.. أنا ساكن في البيت ده.. اللي على سطحه " دش

أشـــار جابر لبناية عند نهاية الشارع الضيق. لم أرُد، وكنت أريد أن أقول له إن المسألة ليست بهذه العشوائية. مش شغلتي آخد بيانات يا روح امك.

أنـــا متجوز وعندي بنت لكن مش موجودين دلوقت.. دول يتحسبوا ؟

لفـــتت عـــبارته انتباهـــي، وأدهشـــتني حميميته الغريبة في التحدث.

ـ طبعا يتحسبوا.. هما فين ؟

ـ طفشـــوا وســـابوني.. رجعـــت مرة من أجازة مالقيتش في البيت ولا حتة عفش.. ع البلاط سيادتك.

أشـــعرتني كلمة سيادتك أنه يتحدث إلى ضابط. لا أعرف لماذا قطِّبت حاجبي في ضجر الضباط المعتاد ونفاد صبرهم.

ـ انت بتشتغل ايه ؟

ـ وقتها كنت لسه في الجيش.

ـ وممكن يكونو فين ؟ سألت قرايبك ؟

ـ مـــا سبتش.. الولية كانت بتنام مع طوب الأرض يا باشا.. وأول مـــا البت جابت دم بقت زيها. أنا كنت باسمع لكن ما شفتش وقلـــت لما اطلع معاش يحلها ربنا. تخيل.. بعد ما اتقطعت رجلي

مـــا بقـــتش ترضـــى تـــنام معايـــا.. كإن بتاعي هوه اللي اتقطع هههههههههه.

سعل بشدة ونفرت عروق وجهه.

ورجلك اتقطعت ازاي ؟

في مشروع حرب.. وكتبوا في استمارات الخساير الساق اليسرى للصول جابر عبد السلام الشرقاوي.

هاه.. هتكتبوا إيه في الموضوع ده ؟

لـــم أرد. كنت محتارا بالفعل وقررت أن أسأل في الهيئة عن التوصيف الدقيق للحالة.

تخيل يا أستاذ.. كل ما اشوف واحدة منقبة، أكشف وشها.. اتبهدلت ضرب واقسام.

خــذ هذه الطعنة النهائية في قلبك ياجابر. لن أقول لك إن لـــيل حكى لي الواقعة بشكل مختلف. لا يهمني ذلك. الكذب ليس أحـــد الأشـــياء التـــي أكرهها. ألم أخبرك أنني شاعر ؟.. لا.. لم أخبرك. انت اكتشفت ذلك وحدك، حين باغتّني في المقهى ورأيت يدي اليسرى وهي تعمل. كشفت سري أيها الوغد.

قال لي ليل

ـ ما تصدقهوش ده بتاع عيال.. هَتَك عرض واد مسيحي في الكتيـــبة بتاعـــته.. وطـــبعا الواد ما أخدش لا حق ولا باطل لما اشـــتكى.. جـــه في المشروع نشن على بتاع جابر.. لكن جت في

رجلـــه.. وطـــبعا مـــا عليهوش أي مسئولية. جابر أساساً بيكره الكفاتسة علشان مراته كانت بتحب تنام معاهم.. كيف عندها.

وقعت في الفخ بسرعة يا جابر. أتيت إليَّ في المدرسة حسب المـــوعد. قفـــزت من فوق السور كما أخبرتك.. بخفة الشبح التي علَّمـــتَها إياك سنوات الصاعقة الطويلة. في الحادية عشرة مساء. كنت تريد أن تعرف.. أليس كذلك ؟ ها قد عرفت. غداً سآتي إلى المدرســـة في الموعد.. سيكون هناك هرج ومرج.. ستكون أنت البطل لأيام طويلة، حتى بعد انتهاء العمل.. قتيل في الفناء غارق فـــي بـــركة دماء تشربها الرمل.. رجل وحيد بسبعة تذكارات في جسده.

4

فكرت منذ قليل أن أضيف وشماً جديداً إلى جسدي، غير أني اكتشفت بحسرة - في مواجهة المرآة، بينما أفتش عن مكانٍ خالٍ أنه لا توجد أي مساحة فارغة فيه. فبامتداد صدري وبطني وذراعيَّ، والحال نفسه مع ظهري، كانت تحيا الأيقونات وسطور الشعر التي توالت في أزمنة عديدة، ليحتل كل منها مكانه الأبدي، كأنها ندوب، في خريطة نصفي الأعلى. أحببتُ دائماً أن يكون جسدي مثل ورقة مكتوبة بحبر باهت. ذلك يجعلني راضياً بشكلٍ ما، رغم أنني أُضطر لارتداء قمصان مقفولة ذات أكمام على الدوام، وداكنة، كي لا تنجح عين فضولية في اختراقها لمشاهدة ما تخفيه. ربما لهذا السبب تحديداً أعشق الشتاء، لأن الملابس الثقيلة في هذه الحالة تعمل كمقبرة.

العبارة التي أردتُ أن أضيفها للَحمي، كانت سطراً من الشعر لابن الفارض: « ***ما بين معترك الأحداقِ والمُهَجِ.. أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حَرجِ*** ».. غير أن اكتشافي المُحبط جعلني أتناسى الأمر مؤقتاً، أو، إن شئنا الدقة، فإنني مجبرٌ على تناسي الأمر للأبد.. لا فرصة لزائر جديد إذن.

أريدُ أن أذهب إلى طبيب، وأخبره أنني لم أعد أنام، بالمعنى الحرفي للكلمة. أنا شخصٌ بلا أحلام، ورغم أن ذلك قد يمثل حسرة للبعض.. إلا أنه لا يعني بالنسبة لي أكثر من اضطراري لقضاء وقت أطول مع أشياء تحدث بالفعل، أشياء على أن أصدق وجودها. منذ فترة صرتُ أمشي أثناء النوم على حافة السطح، تتبدى لي قاهرة أول الفجر حلماً شاسعاً، بيتاً كبيراً من التراب. الآن يراني الجيران كثيراً أتحرك على الحافة، بقدم للأمام وأخرى للخلف.. تتبادلان القيادة.. ذراعيَّ في الهواء، تحفظان لي حياتي النائمة، ترفضان بحسم أن أموت دون أن أدري، أن أستيقظ في الصباح التالي لأكتشف أنني لم أعد أتنفس، وأنني أطارد وحدي السموات الكثيفة الداكنة في عتمة مقبرة.

مرت الشاحنات منذ قليل وتوسطت صفي البيوت. ربما يكون هديرها الخشن أحد أسبابِ توتري، أنساني جسدي وأجبرني أن أطل على الشارع. تطلعتُ إليها من خلف الزجاج. رأيتها، مثلما رأتها السيدة التي كانت تنسق أشجار حديقة منزلها المرتجلة في طرف الشارع.. ومثلما رآها القعيد الأربعيني من أحد البلكونات بينما ينظف زجاج نظارته الطبية ليتمتع برؤية أفضل: أكره هذا الرجل. حين يتطلع إلى السماء وهو يفعل ذلك كثيرا ينسى نظارته للأبد، وأشعر أنه أعمى. فقط عندما ينظر إلى أسفل، إلى الشارع، يرتديها. أيضاً رآها الأطفال الذين تدحرجت كرتهم تحت إحداها وزحفوا على بطونهم للتفتيش عنها.

لا تريد الشاحنات شيئا من هذه البيوت، فسائقو الشاحنات كل سائقي الشاحنات - يعرفون بشكل غامض أن بيتاً مكتملا في مكان يعني مقبرة مكتملة في مكان آخر.

السائقون يدخنون بصبر نافد ويسمعون صخب الأطفال تحت المحركات. من المفترض أن تلقي الشاحنات جبال الرمل والزلط علي إسفلت الشارع، أمام المربع الخالي الذي سيصير عما قريب بيتا.. وهذا الرجل الذي يلوح بابتسامة كائن صار له أخيرا مكان يخصه ويعود إليه، ستصير له جدران تحمل آثار أصابعه.. وعائلة، وسيمنح السائقين - بتسامح - أكثر مما يستحقون.. بينما يمسك حفنات الرمل في قبضته ويتركها تسيل من بين أصابعه ببطء، ويملس على كريات الزلط الناعمة الصلبة.

سيتذكر هذا الرجل - وللأبد - المقدمات المتشابهة للشاحنات بالكشافات التي تومض وتنطفيء، ولكنه لن يتذكر أبداً ملامح أي من السائقين. غبار العجلات هو الذكرى الوحيدة التي ستتبقى في أنوف الجيران، والتي لن تعيش كثيراً مع ذلك. حتى الأطفال لن يتذكروا. سيلتقطون الكرة ويخرجون منبطحين كما دخلوا. لو كنت أحد هؤلاء السائقين لتحركت بسيارتي فجأة للخلف وانحرفت بزاوية حادة تاركا جثة طفل بين العجلات.. ليمتزج صراخه بصراخها الهادر.. ففضلا عن أنني لن أُعاقَب.. سأحول ذلك اليوم إلى ذكرى في كل البيوت القريبة.. في قلوب الآباء والأمهات والأطفال. سيصير هذا اليوم خالداً.. غير أن الناس - للأسف يحبون الأيام المتشابهة الدنيا التي لا يحدث فيها شيء يوقظ

الدموع.. وقريبا، ستستقبل هذه الدنيا بالذات بيتاً جديدا يزدحم بالأنفاس، وستصير للعجائز الملولات بالشوارب الخفيفة جارة شابة، لطيفة، تملك طيوراً في قفص، ولديها الكثير من الأسرار.

أغلقتُ الشباك وأسدلت الستائر وأطفأت الأنوار.هذه الشقة غرفة تحميض. يجب أن تعمل في العتمة لتُطلع الناسَ على صورهم في النور.هكذا أفكر قبل التوجه للضحية. التقطتُ شريطاً ووضعته في جهاز الكاسيت المتهالك. الصوت المشروخ يصدح من أعمق نقطة ألم ***يبكي ويضحكُ لا حزناً ولا فرحا.. كعاشقٍ خط سطراً في الهوا ومحاه.. قلبٌ تمرّس باللذّات وهو فتى.. كبرعُمٍ مسّه الريحُ فانفتحا***. سمعت هذه الأغنية لأول مرة مع سلمى في عتمة سينما جالاكسي المُحكمة. بكت يومها وضممتها إلى صدري واكتشفت أن لها صدراً جميلاً لم أشعر به أبداً وهي عارية.هناك ضوءٌ في الشقة. من أين يأتي ؟. تحركت بين الغرف وتأكدتُ أنني أتيت على كل مصادر الضوء. رغم ذلك لا تزال العتمة مجروحة.لا بأس، لعله ضوء الله الذي لابد أن يراني بوضوح.

المُصوّر الكهل رفض أن يسمح لي بدخول غرفة التحميض.ابتسم بسماجة وقال

ـ ما ينفعش.. هاه.. عايز كام صورة ؟ فيه ٨ باتناشر جنيه و ١٦ بعشرين.

ـ أنا مش محتاج غير صورة واحدة.

ـ خلاص.. يبقى ٨ كفاية.. بس ليه صورة واحدة ؟ ههههه.

ممكن حضرتك تستلم الصور بعد نص ساعة.

أعطاني وصلاً. رجل محني وأصلع.

- مش هينفع انهارده.. هاجي بكرة.

لماذا يحيط غرفة التحميض بكل هذه السرّية ؟ هل سأضيئُها بدخولي ؟ طالما حلمت بالوقوف داخل غرفة تحميض معتمة، في اللون الأحمر القاتم الموحي. ترى وجوه الناس كأنك تبعثها من ميتاتها. تحرص عليها كأنها أرواح تتشكل بين أناملك فقط.أضف إلى ذلك أنه قال

أنا عندي أقدم غرفة تحميض في مصر. القاهرة دي كلها نايمة جوا.

أرهقني كثيرا لدى التقاط الصورة.

ابتسامتك الحلوة.

هذه صورة لغلاف الديوان يا سيدي. كل المصورين يعشقون ابتسامات الزبائن.

- معلش مش عايز ابتسم.

علشان سنانك صفرا... هههههههههه.

جاملته بابتسامة خفيفة بدلا من أن أصفعه، فبرق الفلاش.

- كل الزباين بعمل معاهم كدة.. أضحّكهم واقوم لاقطهم.

أصررت على التقاط الصورة من جديد.أدركَ أنني بدأت أتوتر فصمت. قال

- براحتك.. هوه وشك ولاّ وشي

كدت أن أبتسم له من جديد ولكنني أدركت في اللحظة الأخيرة أنه قد يكون في طريقه لتكرار الخدعة.. يضحك ضحكة شيطانية ويقول هههههههههههههههه.. عليك اتنين

ومش عايز اتصوّر في النور.. ياريت الضوء يكون خافت.

زبون مُتعب. يعني إيه مش عايز تتصوّر في النور ؟ عايز صورة مضلّمة ؟؟. دي سُمعة محل يا أستاذ. لمّا الناس تشوف الصورة ويسألوك متصورها فين وتقولهم حضرتك عندي تبقى بتقطع عيشي.. بتشوه سمعتي. دانا بصورّ فنانين وفنانات.

ـ حاضر. أنا كل فترة كده يقابلني زبون مزاج. هوّا حضرتك بتغني أو حاجة كده ؟

قبَضتَ يدي على الوصل.

والصورة اللي مش عاجباك حسبها عندي أنا.. حبروزها واحُطّها برّة في الباترينة.. ههههههه.

خرجت من الشارع بصعوبة. الشاحنات قطعت الطريق تماما.الهواء مُترب خانق. هواء فناء المدرسة والمقابر. نسخة ثالثة تزورني الآن في الشارع. في أفضل الأحوال سأصل إلى محل التصوير بعد ساعة ونصف. أمامي رحلة شاقة من أجل الحصول على صورتي. وجَّه أحد الأطفال تصويبة قوية بالكُرة صَفعت وجهي. سمعت كلمة مش تحاسب ؟ قادمة من صوت أنثوي. لم أعرف هل يوجهها الصوت للطفل أم لي.مسحت وجهي

وتذوقت بطرف لساني مذاق التراب الجديد الذي استقبله الشارع اليوم.

ايه يا عم.. أقولك بعد نص ساعة تيجي بعد أسبوع ؟

قالها المصوّر بحميمية غير مبررة.

أمال ليه طلبتها فوري ؟ كان ممكن تدفع فلوس أقل.

معلش أصلي انشغلت شوية.

اتفضل.

فضضت الظرف بلهفة. أبتسمُ في الصور.

مش دي.. عايز الصورة التانية.

تانية إيه ؟

اللي مش ببتسم فيها.

آاه.. هي دي الصورة التانية.. لاحظ حضرتك.. النور فيها ضعيف زي ما طلبت.. الأولانية كانت منوَّرة.

بس انا ما ابتسمتش في التانية.

مصوّر مأفون، ولكنه صادق. من أين أتت الابتسامة ؟

عبرته إلى غرفة التحميض بسرعة.

بتعمل ايه ؟

هدوَّر على الصورة.

لحق بي بينما كنت الآن في الداخل. انفتح الباب بمجرد أن أدرب" الأكرة ووجدت نفسي أخيرا في حلمه الخاص.تشابكنا في الغرفة الشبحية بينما بدأ يصرخ اخرج.. اخرج.

ثوان معدودة قضيتها بعد أن ارتاحت جثته على الأرض.
بعدها خرجت وأغلقت باب الغرفة بهدوء. عبرت الغرفة الخارجية
إلى الشارع، وكان هدير الشاحنات لا يزال يطن في أذني.

5

سماء القاهرة غريبة اليوم. طائرات قليلة تعبرها باتجاه المطار القريب من العمل. بالمقابل، تزدحم الطائرات الورقية.

تجعلني الطائرات الورقية أفكر في أذرع الأطفال الصغيرة الممدودة بإحدى بقاع المدينة. أصابع تتشبث بالخيط لازالت السماء أمامهم حلماً قابلاً للتحقق.

الطائرات الحقيقية.. تلك الجثث المعدنية ذات الصوت اللاذع الخاطف، تحيلني لنوم متعب لغرباء. يرون اليابسة السفلية البعيدة حفنة من الخرائط. لا فرق بين عائد ومغادر، كلاهما غريب، كلاهما معلق في هذه السماء.

يتشابه الغرباء كثيرا في أعينهم حكمةٌ أبعد من أعمارهم. لا يعبأون إن سقطت الطائرة في محيط شاسع أو تناثر جسدها في غابة متشابكة. لا فرق بين سمكة قرش جائعة أو أسد يبحث عن وجبته. سيكون هناك في كل الحالات مشهدٌ مضحك يسبق لحظات الوداع، أيقونة سعادة داكنة أخطبوط يطارد سمكة قرصت أحد أذرعه، أو قرد يلهث وراء إصبع موز

بدأ سرب الرجال على الكراسي المتحركة يحتل الشارع. طقس يومي شاذ في نهارات الضاحية. يأتون من ناحية النادي القريب. هُم أيضا ينظرون كثيراً للطائرات، ربما لأنهم يعتقدون أن السماء ليست بحاجة لساقين سليمتين كشرط للتحليق. يبدون حقيقيين لدرجة مزعجة. أُحب كثيراً أن أكتب قصيدة عن رجل على كرسي متحرك يتطلع إلى طائرة. بأذرعهم القوية يدفعون كراسيهم، بينما يسيرون في طابور طويل وسط شوارع الضاحية. يزعجون السيارات التي ترتبك فجأة. هُنا لن يشاهدوا إلا كائنات تمشي على إطارات. هُنا لن يلمحوا ساقاً واحدة تمضي بشجاعة. بدأوا يسرعون من تحركهم ليروا نظرات الرعب في عيون المشاة الذين أخذوا يسرعون بالابتعاد. تلقوا بنشوة سوداء توسلات امرأة عجوز أسرعت من خطوها لتتفادى الرعب المعدني. ضحكوا بصوت عالٍ ضاعفه الصدى حين وَقَعَت على الأرض وتبعثرت حبات الفاكهةً التى كانت تحملها على الإسفلت.

ينتظرون سقوط شخص لم تسعفه قوته لينجو من مقدمة سيارة مسرعة. يترقبون بشغف ما سيسفر عنه جسده المسجى. لا ينتظرون موته، بل عودته محمولاً إلى بيته لينضم لهم في اليوم التالي صديق جديد.

في أمسياتهم يتحدثون عن الأجيال الجديدة من الكراسي المتحركة تلك التي يمكن أن تُطوى حتى تصير في حجم كف وتوضع في حقيبة يد.. تلك التي تتمتع بسرعات متنوعة، وتلك التي يمكن استدعاؤها فور النهوض من النوم عبر بصمة الصوت.

يتسابقون في المناطق الخالية عند تخوم الضاحية. يغمرهم العرق بينما تنفر عروق أذرعهم. وبالقرب منهم يجلس الأقارب بابتسامات التشجيع المتفق عليها. لا أحد ينتصر، فعند لحظة ما يختل توازن شخص أو شخصين، وتتكوم الكراسي المندفعة عند نقطة صانعة تلاً كبيراً، لتشتبك السيقان مستسلمة. ينقلبون كما يحدث لقطيع سلاحف انقلبت على صدَفاتها.

الرجال على الكراسي المتحركة ليسوا دائماً فريقاً واحداً مع ذلك، فمن فقد ساقيه في حرب مجيدة لا يمكنه أبداً أن يستوعب أنه يتساوى وذلك الذي فقدهما في حادث طريق عارض. لا يمكن لمن سقط من منطاد بينما يطارد سماوات غير مرئية أن يكون أخاً لعابر التهم القطار ساقيه أثناء سهود. أما من وُلِدَ بساقين ضامرتين فإنهم جميعاً يتعاملون معه بالحياد الذي يستحقه ضرير وُلِدَ في الظلام.

في الليل فقط يجربون النظر إلى أسفل. يُلامسون الأرض بأقدامٍ ميتة. حتى الدماء التي تنز من أرجلهم عندما تجرحها قطعة زجاج، تبدو غير حقيقية. وعند النوم.. فقط عند النوم.. يتركون نوافذهم مفتوحة على أزيز الطائرات.

هاهي طائرة ضخمة، حقيقية، تدخل أخيراً حيز رؤيتي، تعبر السماء القريبة. تشتبك بطائرة ورقية. يصطدم خيال الطفل القابض على خيطه بحنكة القائد المحترف. يختل توازن الطائرة الضخمة، تبدأ في التأرجح، ثم تأخذ في السقوط. الطائرة الورقية

تهتز قليلا ولكنها تعود لتعلو ينقطع خيطها وتصبح أخيراً حُرَّة. لاشيء سيعيدها لملامسة تراب الشوارع.

في محيط أو غابة.. هناك الآن أشخاص يواجهون رعب النهاية، وفي نقطةٍ بعيدة من المدينة.. يقهقه طفل.

من نوافذ العمل أمد رأسي لأطلً على مدينة تتساوى فيها الفصول تتوالى دون أن أرى سقوط ورقة شجر في الخريف أو تستقبل جبهتي قطرة مطرٍ في الشتاء.. دون أن تجبرني شمس الصيف القوية على التفتيش في الظلال أو يدعوني العشاق الربيعيون للتلصص. تأبى القاهرة أن تعترف بهذه الضاحية كأحد أطراف جثمانها الشاسع.

لا تزال الطيور جاثمةً بامتداد سماء مبنى المباحث القريب، الأنيق، ذى المعمار القوطى الرفيع. قطعة داكنة تبدو سماءً مستقلة، يغمرها رفيف ثقيل يبعث على الرعب. لو كانت الطيور تُبعث لصدقت أن تلكَ أشباحها. سقط طائرٌ منذ أيام بين يدي بينما أقف فى النافذة، وبخفة أعملت فيه مطواتى وقذفت به إلى الشارع.. وأنتج قصيدةً من ثلاثة أسطر أراها من أروع ما كتبت.

لقد حاولوا كثيراً طرد الطيور حتى يستطيعوا رؤية الشمس وهى تشرق.. غير أنهم عدلوا من تنفيذ قرارتهم حين اكتشفوا بعد أيام – أن جلبتها عزلت أصوات التعذيب فى الداخل عن آذان الفضوليين.

يقف جنود الأمن المركزى عند السيَّاج المسوَّر، يقتلهم الفضول للنظر لأعلى ولا يستطيعون. استبدلت البلدية أكثر من

طاقم منهم بعد أن تزايدت حالات الصمم منذ مجيئها. لا مانع لدىَّ من اقتيادى بصمتى الدموية تتجول على أى حال فى المدينة الآن شرط أن تنزاح الطيور لتعبر صرخاتى ويتعرف عليها المارة. لم يكن الجنود يرغبون فى مشاهدة الشمس ولا شكل السماء. كانوا فقط يريدون التأكد أن ثمة إلهاً لا يزال قابعاً.. غير أنهم عجزوا، بعد سنوات طويلة تمرنوا فيها على ألا ينظروا لأعلى. أرى أقفيتهم تتلقى مخلفات الطيور فى استسلام كاره. يرتعشون كلما استقبلوا زخات البراز الرقيقة. أقنعوا أنفسهم بعد فترة وجيزة أن تلك الفضلات الطازجة وخزات أمطار.

صار المكان مثل لوحة مجسمة من أجساد ملايين الطيور، حتى أنه استحالت رؤية ولو ذرةٍ واحدة من لون الجدران الحقيقى. لقد جثمت الطيور على السطح والتصقت بامتداد البناية محافظة حتى على أبسط الانحناءات والبروزات وغطت الأشجار، أما أرض الحديقة فقد اكتظت بتلك التى كانت تسقط فجأة لتحيا لحظاتها الأخيرة.. وبات عادياً للمارة مشاهدة ضباط يغادرون البناية فى مهابة بينما تراصت عشرات الطيور على أكتافهم وأخرى على رؤوسهم، ورؤوس دقيقة مزغبة تطل بفضول من جيوب ستراتهم، كما صار مألوفاً بين الضباط أن يهم أحدهم بالتحدث ليجد سربا رمادياً ينطلق من فمه.. وكان تأثير تلك المشاهد يتضاعف لدى انقضاء النهار إذ يبدون - لدى خروجهم عند غروب الشمس وسط جيوش الصيحات الرفيعة العدائية

مثل سحرة.. وهكذا رسخت فى أذهان أطفال الضاحية فكرة أن الضابط هو علبة مليئة بالطيور

لاحظوا بعد أيام أن طريقة تحليقها بدأت تتخذ شكلاً مختلفاً، تحولت إلى ما يشبه سباحة بطيئة لأعلى وأسفل، كأن خيوطاً مخفية تحركها، وكأن كل تلك الجلبة لم تكن سوى مزحة ثقيلة من قوة ما غامضة لا سبيل لمواجهتها.. غير أن ازدحامَ الطِّيور النافقة فى الأسفل كان هو السبب فى تأجيل سقوطها حيث لم يكونوا على دراية بطقوس الطيور التى تعقب الموت. لقد ضاعفت من إغراق الحراس بفضلاتها محاولة التخلص تماماً منها.. واندهش الريفيون القابضون على البنادق من قدرة كائنات ميتة على التخلص من بقاياها.. وهكذا حوَّلهم موتُها الغامضُ رغماً عن أنوفهم - إلى حالمين.

بدأ طابور الخارجين من رحلة التعذيب يتحرك مشوشاً، فى الظلال القائمة لآلاف الندوب وتشوش الأعين التى تعودت رؤية العالم من خلف عُصابات حين وجدوا فى انتظارهم جمهرة الأشخاص الذين اعتقدوا أنهم جاءوا لاستقبالهم، غير أنهم حين اتجهوا إليهم، لم يُعرهم الخارجون التفاتاً. راحوا ينظرون إليهم كأنهم يتأملون أطلال ملامح قديمة لم تعد تخصهم، قبل أن ينهمكوا من جديد فى مراقبة المشهد الذى سيبقى طويلاً بعد ذلك: بدوا أليفين تماماً حيث لم يعودوا يرون شيئاً بعد أن تكفلت الشمسُ المخفية بمحو كل صناديق دنياهم.. تنسال مياه محرقة من عيونهم، غير أنها ليست بُكاء.

رأيهم يحدقون بحدقات بيضاء، باهتة. شعرت بهم ينظرون إلي، يرونني قريباً جداً كأنما عبر مناظير مقربة، فأشحت بوجهي، وبسرعة استدرت لألتقط منظاري المقرب الذى كثيراً ما أسلطه على المدينة، وبمجرد أن وضعته على عينيَّ، اكتشفت أنهم اختفوا.. وأن السماء – في الثواني القليلة التي استغرقتها مغادرتي للنافذة وعودتي إليها – بدأت تمطر.

طالما أخافتني هذه الضاحية رقعة شطرنج هائلة.. شوارعها مستقيمة ومتقاطعة، بلا أسماء. كل شارع تم اختصاره في رقمٍ مكتوب بوضوح على لافتة زرقاء. تقطع الشوارعَ صفوفُ أشجار مهذبة متساوية القامات في منتصف كل شارع. آلاف التوائم من الكائنات الناحلة تؤكد التيه. لا زلت حتى الآن أتوه في الضاحية وأضل طريقي إلى الهيئة. فكرت أن أذبح بعض الأشجار لتصير علامات تصنع بعض الفارق ولكني خفت من عقاب الحي لذلك استعضت عن ذلك بإرسال خطابات يومية للقائمين على "الحي أستنجد بهم وأستجدي عطف قلوبهم الرحيمة.. وفعلت الشيء نفسه مع بعض المجلات والصحف. أحيانا بصيغة المفرد ***أنا موظف في إحدى هيئات الدولة.. وأتوه يوميا لدى الذهاب إلى عملي الكائن بضاحية "م لأن شوارع الضاحية متشابهة والأشجار متطابقة في الطول والشكل مما يهدر وقتا ثمينا من حق العمل كما يعرضني لخصومات وحرمان من المكافآت*** أحيانا بصيغة الجمع ***نحن أهالي ضاحية م نتوه لدى الذهاب إلى بيوتنا حتى صرنا نفتح بيوت بعضنا***

البعض ونتبادلها كل حسب البيت الذي يصله أولاً.. وهو مايهدد استقرارنا العائلي عنهم : س. ع. ل.

أستدعي قصص رعب كثيرة بينما أتطلع إلى القصور والفيللات. حتى أماكن العبادة هُنا تبدو _ على حداثة بنائها أطلالاً تتلصصُ من بين غبار أزمنة أخرى.العاصمةُ بعيدةٌ الآن. المدينة التي تبدو ضخمة تحيا هُناك، معزولةً ومتوحدة. هُنا الضاحية ولا شيء آخر. ماكيت مُتقن لحلم يقظة آمن.. حيث لن ترى مشاجرة، أو بقعة دمٍ تسيل، أو امرأة تبكي بجوار حائط متهدِّم. لم يأتِ الشيطان هُنا بعد.

صرتُ أعرف تبدل الفصول من ملابس المانيكانات القابعة خلف زجاج الباترينات.. تُلوِّح للمدينة. تلك الكائنات البلاستيكية لم تبتسم على الدوام ؟.

بذراعٍ مرفوعة وأخرى ملتصقة بالجسد المشدود الواثق، وبساق مثنية تتقدم خطوات للأمام وأخرى مستقيمة، تتخلفُ عنها بسنتيمترات. أطراف أصابع القدمين هي فقط التي تُلامس الأرض.لا يعنيها ما يحدث خارج زجاج بيوتها الناصع على الدوام. تعلن تغيُّرالفصول دون أن تعرفه، فالحرارة داخل بيوتها لا تتبدل أبداً. لا يتقلب المناخ. في المساء يملأ المراهقون الشوارع، يعبرون السيارات بيسر، تبدو لهم حيوانات أليفةً من المعدن. العجائز يتكئون على الحوائط، لا يغادرون رصيفاً إلا باتجاه رصيف آخر.

الوجوه تلتصق بزجاج الباترينات، تترك أنفاسها: تذكارات كثيفة. تتقابل العيون لوهلة. أيهما في هذه اللحظات يتطلع إلى الآخر؟. في الداخل تتراص المانيكانات النصفية، مثبتة على خوازيق. ليس لها مكان في ضوء الواجهات. تبدو كأسرى حرب عادوا أنصافاً ليطلوا على الحياة بمقدار ما فقدوا. تبدو قانعة رغم ذلك، فلا يجب أن يُطل مانيكان على الحياة بنصف جسد.

كالعادة ترمقني البائعات بنظرة مرتابة لكنها خاوية. يعرفن أن من يطيل النظر هو شخص لا يملك اتخاذ خطوة الدخول. لا أعبأ. أستطيع في شارع جانبي أن أوقف أي واحدة من هؤلاء البائعات وأرسلها للسماء. الأهم أن أفكر في المصير المجهول الذي تواجهه تلك الكائنات البلاستيكية عند موتها.. حين يجيء موعد إزاحتها ليحتل مكانها جيلٌ جديد، بابتسامات أكثر إتقاناً وعيون حرص صانعوها على أن يمنحوها لمحة حياة تبدوحقيقية. إلى أي مقابر تتجه حينها ؟.. وهل تعبأ بأن تحمل أخواتها اللائي بلا أرجل أم تتركها تواجه مصير المفقودين في حرب ؟.

حضرتك بتدوَّر على حاجة معينة ؟

تقولها لي البائعة المحجبة التي خرجت إلي عند الرصيف. الزبائن بالداخل قليلون.. لعلها تتسلى، تقتل فراغها بأي شيء. تشبه كثيرا بائعة الورد، ولكنها متغنجة أكثر. هذه فتاة يضاجعها صاحب المحل في المساء.يغلق الباب وينام معها بين أرجل المانيكانات. تنبهت إلى أن المحل لملابس النساء. ما إن تقترب سيدة أو فتاة من الباترينة ويريني حتى ينصرفن على الفور

مومسات القاهرة خجلات. صفة حميدة على أي حال. كل المانيكانات ترتدي قمصان نوم وملابس داخلية.

فيه حاجة معينة حضرتك بتدوَّر عليها ؟

هههههه.. ذكية.. قحبة مبتدئة. قامت بعملية تقديم وتأخير لتطرح على نفس السؤال. "***مطلوب للعمل بالمحل آنسة حسنة المظهر بمرتب شهري***" نظرتُ إليها، قلت "قديماً جداً جداً يا صغيرتي، لم تكن المانيكانات تُسجن خلف الواجهات. كانت تُترك أمام المحال على الأرصفة كأنها تدعو المارة للدخول.. ولكن ذات يوم، بدأ أحدها في التململ.. كان ذكراً وسيماً يرتدي ملابس السهرة. تحركت ذراعه البلاستيكية نازعةً "الجاكيت" ثم "الكرافت" فالقميص الذي كان يسدر على نصفه العلوي. بذراعه الأخرى خلع البنطلون، ثم بدأ أولى خطواته في الشارع الغاص بالبشر.. وما هي إلا لحظات حتى كان قطيع الرجال والنساء والأطفال البلاستيكيين يملأ شوارع المدينة.

في البداية صُعِق الناس لرؤية أشخاص عراة يتجولون مبتسمين بوجوه مرفوعة لأعلى، ومر وقت قبل أن يتبينوا العيون الخاوية والابتسامات الشمعية والخطوات الآلية المتيبسة لذلك المارش البلاستيكي، غير أن هذا الاكتشاف ضاعف الرعب.

كانوا يتحركون في هدوءٍ واثق.. ولم يحاولوا تفادي مقدمات السيارات التي اختلت بينما لم يكن سائقوها قد اكتشفوا الخدعة بعد. كانوا فقط يُجيلون حدقاتهم الميتة في الملابس التي طالما

ارتدوها وتغطي الآن أجساداً أخرى، مبتسمين بسخرية من بين شفاههم نصف المغلقة.

لم يستمر الأمر طويلاً، فقد سيطرت الشرطة على الموقف بعد أن حاصرت العربات المصفحة كل مخارج المدينة ومداخلها. تم اقتياد المانيكانات بعدها إلى بقعة مجهولة، ومع مجيء أول دفعة من الأجيال الجديدة كانت البيوت الزُجاجيَّة قد أُعدَّت. تقول الحكاية يا أختي إن واحداً من المانيكانات ظل هارباً، وفشل الجميع في العثور عليه. يقال إنه ذلك الذي بدأ بخلع ملابسه.. ومن يومها وهو يهيم في المساءات، يقف كثيراً أمام الواجهات، يتأمل أشباهه، ويسأل نفسه غير عابيء بأعين البائعات المتلصصة ولا بأسئلتهن السمجة أيهما الآن هو السجين ؟.

لم يتوقف المطر بعد. هذا جيد على أى حال. لديك يقين ما بأنه في المطر تصير المدينة أكثر صدقاً. الماكياج الثقيل على وجوه العجائز الأرستقراطيات يزول. تعود ملامحهن لتشبه شحوب غرفهن المغلقة. الأشباح تتجول بحرية قادمة من المقابر باتجاه بيوتها القديمة، فالشتاء يعني لها حفلاً تنكرياً بلا زمن. الرجال الأقوياء يهرولون متخلصين من هيبتهم المزيفة. نجوم السينما والغناء المعلقون أعلى البنايات في سجون من النيون يرتدون ملابس صيفية دائماً الرجال مفتولو العضلات والنساء عاريات. تغرقهم الأمطار ويبقون مبتسمين مع ذلك. هذه هي اللحظة الوحيدة التي تشعر فيها أنهم غير حقيقيين. الأطفال فقط في تلك اللحظة يكونون أقوياء. يضحكون بسعادة وقد اكتشفوا أن

للسماء وظيفة جديدة. كذلك يظهر كل الوحيدين.. يدخنون وقد أخفت الكوفيات تجاعيد لا تلائم أعمارهم، تُغطي نصف وجوههم.. أما البيوت فتشتعل نوافذها بالضوء.. تتطاير من البلكونات والشبابيك رسائل غرامية مكتوبة بالحبر لتسيل الذكريات بين الطرقات.. تدوسها الأقدام. ولأنك قاتل شتائي فإنك تعرف أنه في الشتاء فقط يمكن لأي عاشق أن يتخلص من خطاباته الغرامية دون أن يراه أحد.

- **تاكس.**

زجاج النافذة المجاورة لك في السيارة خريطة مائية معقدة لا تستطيع من خلالها رؤية أي شيء في الخارج، رغم رغبتك المجنونة في ممارسة الفرجة على الناس والبيوت.أنفاسك التي عبأت مساحة الهواء المغلقة من حولك تكاد تلمسها بيديك. تعاندك بدورها، فهي تتجه نحو زجاج نافذتك وتتمدد عليه لتضاعف من استحالة الرؤية. تفصلك سنتيمترات عن السائق الضجر. السائقون قتلة بالفطرة. المسَّاحات " تتحرك دون كلل لتزيح الماء عن الزجاج الأمامي.. توأم أسود من العساكر يمارسان عملهما بآلية ونشاط. السائق يُعدّل كل لحظات من المرآة التي تتوسط أعلى رأسيكما وكذلك المرآة الجانبية خارج نافذته. تصرفات بلا معنى تقريبا. يريد – ببساطة – أن يصل بك دون أي متاعب أو خسائر، أما أنت فلا تعنيك محطة الوصول في حد ذاتها، لأنك مؤمن أن الكنز هو الرحلة، تلك العبارة التي حفظتها عن ظهر قلب ونسيت قائلها الأصلي حتى صارت عبارتك اللصيقة. بأناملك تزيح

أنفاسك عن الزجاج، ولكن الرؤية تبقى مستحيلة، فهناك جانب آخر من الزجاج، في الخارج، يتلقى الأمطار والأتربة وكل ما يتركه فيه العالم الخارجي مستسلماً. صار لوح الزجاج شخصين إذن.. واحد داخل السيارة، متدفيء مثلك.. يرعاه زفيرك الساخن، وآخر في الخارج.. بارد ومهان ومتاح.هل يشعر بأي شيء من ذلك ؟. قرينه على الجانب الآخر حيث يجلس السائق ارتاح من هذه المعاناة، فشباكه مفتوح تماما.. تهب منه الرياح الثلجية. رفض أن يغلقه. فَضَّل أن يترك كوعه خارج النافذة. هذا جزء لا يتجزأ من شخصية السائق المحترف. أنتما الآن في عالمين مختلفين، كل منكما يعيش مناخاً يخصه. تحاول أن تنظر للعالم من شباكه ولكنك تفشل، فجسده يعوقك عن الفرجة.. كما أن هذا عالمه هو.. عالمك لا يمكن أن تطل عليه إلا من خلال شباكك أنت.

لا بأس.. ستدخن سيجارة جديدة، وتسأله: "احنا فين دلوقت؟"، وسيجيبك بعبارة ليس لها أي معنى: "خلاص قرَّبنا" أنت أيضاً صرت تائهاً في المدينة التي تحفظ شوارعها عن ظهر قلب.. حياتك ووجودك مُعلَّقان بالشخص المجاور لك.. أخيراً تقرر فتح شباكك "و اللي يحصل يحصل" متذرعاً بأنك ستقذف بالسيجارة إلى الخارج.. ولكنه – بوجدان المختطف المحترف – يأمرك: ماتفتحش الشباك.. مزيحاً مطفأة السيارة إلى الأمام: طفي سيجارتك هنا!.

يـــبدأ الشك يساورك حياله. كان حميما حتى اللحظة التي أدار فيها "الكونتاك" وأراح كفه اليمنى على "الدريكسيون"، بعدها صار حفـــنة مـــن الأعضاء يعمل كل منها منفصلا.عيناه على الطريق. قدماه واحدة على "الفرامل والأخرى على "البنزين يده اليسرى تقوم بمهمتها على أكمل وجه، منهمكة في إشارات للسيارات التي خلفه وتحيات عابرة لأمناء الشرطة. فمه يوجه شتائم بذيئة لسائقي الميكروباصـــات وللعابرين المسرعين أمام السيارة. تكتشف أنكما لم تتبادلا النظرات منذ انطلقت بكما السيارة. تشعل سيجارة جديدة وتقـــرر أنـــك لحظة نهايتها ستفتح شباكك لتقذف بها..لن يستغرق الأمـــر ثـــوان ولكـــنه سيكون كفيلا بأن تعرف أين أنت.. ولتعودَ لمشـــهد المديـــنة الغارقة في المطر الذي تحبه. ستستقبل الزخات المـــنطلقة بشكل مائل على وجهك.. وتمد كفيك بنزق لاستقبالها.. نعـــم.. سأفعل، وإن رفض أو فتح لي المطِفأة من جديد سأقول له عبارة واحدة بنفس طريقته الميكانيكية نزِلني.

تلـــتهم الأنفاس بنهم، تعمل بدأب على إنهاء عمر سيجارتك.. أخيـــراً تصـــير مســـاحة البياض أقلِ من مساحة "المبسم البني تتـــناقص أكثـــر.. أنـــت تكملها تماماً رغم أن هذه ليست عادتك، تحـــتمل احتراق شفتيك مع الأنفاس الأخيرة كأنك تريد أن تُثبت له أن الســـيجارة قـــد انـــتهت فعلاً، وأن كل ما حدث لمْ يكن مجرد تمثيلية منك لتزيح الزجاج.. تفترض أنه سيوجه لك أسئلة حاسمة ستنتهي بإدانتك حتى تعترف بأنك كاذب، لعله كان يلمحك بطرف عيـــنه، يراقب يدك المرتعشة المتعجلة وطريقتك الساذجة في نفث الـــدخان. أخيـــراً كـــف يدك اليمنى تقبض على "الأكرة"،أنت لن

تستأذنه هذه المرة، سيبدو الأمر عفويا. جثة السيجارة لازالت بين إصبعيك تنتظر تحليقها في الريح.. مع التوقف المفاجيء للسيارة، وصـــوت الســـائق الذي عاد فجأة لنعومته السابقة - يخبرك بأن الرحلة قد انتهت.

6

اقتحمت هناء حياتي في لحظة غامضة.

كـــنت أقـــف فـــي المقابـــر، أراقب نزول جسد "سلمى إلى التراب.. محاطاً بأفراد أسرتها الذين لا يعرفون شيئاً عني ولا عن سبب وجودي أثناء "دفنة" ابنتهم. كنتُ كل دقائق أمسح خيط دموعٍ جديـــد مـــن تحت نظارة الشمس الرخيصة: القناع الداكن المبتذل الـــذي اشتريته قبل الذهاب. لم أكن أفكر في إخفاء دموعي.. كنتُ فقـــط أريد أن أخبئ عينين جميلتين تبدآن حياتهما، كما عرفتُ دائماً، في هواء الموت.

فـــي محـــل الورد نظَرت لي البائعة المحجبة بعداء، وتركت المصحف المفتوح، وقالت ببرود السيجارة.

فهمـــتُ أنها تطلب مني إطفاء سيجارتي، خاصة وأن عينيها لحظـــة نطقهـــا بالكلمة توجهتا مباشرة لعلامة ممنوع التدخين المثبتة أسفل آية الكرسي. وكما هي عادتي حين يُطلب مني ذلك، الـــتهمتُ ثلاثـــة أو أربعـــة أنفـــاس متلاحقة قبل أن أمد يدي بها للمطفأة. كان ذلك في الحقيقة أسوأ مما لو تركتني أدخن، فقد صار المكعب الزجاجي سحابة من الدخان. كل السجائر في المطفأة تكاد

تكـــون مكـــتملة. أطفأها أصحابها مبكراً جداً، قتلوها في مهودها، ابتسروا حيواتها، امتثالاً لأوامر الفتاة المحجبة ذات الوجه الحنطي المشعر

أأمر.

عايز ورد.

عايز نوع إيه؟

كانـــت تنظر لي بتشكك، وبطرف خمارها غطت أنفها كي لا يصلها عطري النفاذ. تتحاشى الخطيئة. لو خلعت النظارة السوداء – كمـــا فـــي الأفـــلام الخيالية الرخيصة- سترى عيني البنبيتين حدقتين بلون الشاي، لتبدأ بهدوء في فك ملابسها قطعة قطعة، قبل أن تستلقي على المكتب، رافعة ساقيها وتقول بسرعة ونهم

- ياللاً بسرعة قبل ما ييجي صاحب المحل.

يعبـــر الـــناس المحل، يرون رجلاً يضاجع فتاة على مكتب خشـــبي، ولا يعلقـــون. يظنونه حلم يقظة في صباح مترب. بعدما ننتهـــي، تلـــتقط سيجارة من علبتي وتبدأ التدخين، ولكنني أصفعها علـــى وجههـــا بقـــوة، قـــائلاً السيجارة. وتنظر إلى لتجد عيني الجميلتين تتأملان الستيكر المثبت على الحائط.

- مش عارف إيه النوع بالظبط.

بضجر ونفاذ صبر قالت

يعني المناسبة إيه؟

- جنازة.

شـــحُبت قليلاً. يبدو أنها ظنتني في البداية أريد ورداً لعشيقة تنتظرني أمام باب سينما.

ثانية واحدة.

قالـــتها كمن يشاطر شخصاً أحزانه بإخلاص، واتجهت لغرفة داخلــية عبــر باب زجاجي ظننته في البداية مرآة. بعدها أتت لي بــزهور صفراء وبنفسجية. اعتبرت ما حدث إيذاناً لي بأن أدخن. لــم أكــن بحاجــة لســيجارة ولكني كنت أريد أن أعرف هل ستتغاضـــى عــن سـيجارتي الثانية، لأكون أول زبون يكمل سيجارة هنا؟.. أم ستخبرني بحسم، وللمرة الثانية، لكن بهدوء أكثر ربمــا، لو كانت متعاطفة، أو بعصبية أكبر، لو شعرَت أنني غبي أو أعمل على ابتزازها عاطفياً **لو سمحت السيجارة.. كلنا مات لنا ناس.**

لو تركتني أكمل السيجارة سيأتي زبون أثناء وقوفي، سيخرج مــن علبــته ســيجارة ويطلب مني "ولَعَة"، سأمنحه سيجارتي، وسيردها لي شاكراً. ستقول له الفتاة

السيجارة.

فـــي هذه الحالة لن يفهم معنى الإشارة، وسينظر بطرف عينه لسيجارتي التي أوشكت على الانتهاء، قائلاً

ـ مالها؟

ـ ممنوع التدخين.

ما الأستاذ بيدخن.

ـ ده عنده ظرف.

بهدوء قالت لي الفتاة "السيجارة"، بينما انهمكت في وضع الورود داخل "بوكيه"، وبدأت تعمل بالمقص على تهذيبه وتحكمه بشرائط سيلوفان نحيلة، سوداء.

دفنت السيجارة بجانب أختها في المطفأة.. بعد أن التهمت منها ـ مثل المرة السابقة ـ عدة أنفاس سريعة وعميقة. بعدها تناولت السيجارتين ووضعتهما بجانب بعضهما على سطح المكتب. اكتشفت أنهما متساويتين تماماً. نظرت الفتاة إلى بشيء من التوجس ولكنها لم تعلق. كنت مندهشاً جداً، فقد فشلت في إيجاد ولو ملليمتر واحد يفرق إحداهما عن الأخرى.. ولم أعد أعرف أيهما دخنتها أولاً وأيهما كانت الثانية. ربما لهذا السبب فكرت في إشعال سيجارة ثالثة، لتأمرني بإطفائها، لألتهم عدة أنفاس، لأضعها في المنفضة، لأخرجها، لأكتشف أنها متساوية مع أختيها. وهكذا.. علبة سجائر كاملة أكتشف مع تكرار الموقف، وبإعادة السجائر المبتسرة إليها، أنها تحتل صفين متساويين، كأنها صُنعت هكذا. معجزة سرية يا أختي.

اتفضل.

منحتني باقة الورد وهي تهش بيديها على أنفها، لا أعرف هل بسبب سحابة الدخان التي تحمل أنفاسي في سماء المكعب الزجاجي أم بسبب عطر "هوجو" النفاذ الذي يُغرق جسدي مدعوماً بمزيل عرق "آكس" على جسدي الموشوم وبجيل "بالمر" الثقيل على شعري الغزير الثقيل الناعم؟

كام ؟

اتنين وتلاتين جنيه إن شاء الله.

مـــددت يـــدي بأربعـــين جنـــيهاً، ورقة بعشرين وورقتين بـــ "عشرة"

ـ ما فيش فكة؟

قالـــتها وهـــي ممســـكة بـــورقة بـــ "عشرة" بعد أن وضَعَت الجنيهات الثلاثين في درج المكتب.

لا والله.

ـ خلاص يبقالي.

ومدت يدها بها لي.

تمنـــيت فـــي هـــذه اللحظة أن أقول لها: طيب هاتي الجديدة وخدي القديمة.

الفـــتاة بخبث شديد – وربما أيضاً دون أن تقصد وضعت الـــورقة الجديدة الملساء في درج المكتب، وأعادت إلي الأخرى، القديمـــة المهتـــرئة، التي دسستها بين الورقتين كي لا ترفضها أو تنتـــبه لهـــا. أفعـــلُ ذلـــك دائمـــاً كلمـــا اشتريت شيئاً وكذلك في المواصـــلات العامـــة.. كأن من أعطيه النقود لن يعدَّها ويتلمسها ورقةً ورقة.. أو كأن وجود ورقة جديدة مصقولة سيشفع لوجود جـــارة مهتـــرئة.. مـــبذولة. وربما قصدَت الفتاة أن تُطلعني على عورتي التي أردت مداراتها بأن ترد إلي بضاعتي الفاسدة وتقول: فاقساك.

ـ جديدة إيه وقديمة إيه ؟

انتِـــي هتعرفي تضيَّعيه   وبعدين هيَّه مش قديمة قوي. يعني.. شغالة.

ـ مـــش كفايـــة سبتّلك اتنين جنيه؟. ده الحاج ممكن يخصمهم مـــن شـــهريتي.. مانـــا كنت ممكن ألطعك وألف بيها علشان أفك واديلـــك الباقـــي.. أو اديِّهالك انت تفك واخللي الورد هنا لغاية ما تـــرجع.. وهتلاقي كل الناس قافلة.. وحتى لو لقيت حد فاتح مش هيرضى يفك لك.. توكل على الله يا أستاذ.

أحجمتُ عن أن أضع نفسي في مخاطرةٍ من هذا النوع. كنت أحتضن باقة الورد شاردا. عادت الفتاة لمصحفها الصغير. مهمتها انـــتهت. لا يهمها أنٍ أنصرف أو أظل واقفاً بجوارها للأبد. المهم ألاَّ أدخـــن. بدأ صوتها يرتفع بالتلاوة. جسدُها يتحرك بطريقة آلية رتيـــبة للأمام وللخلف. تنحني تماماً على الكتاب حتى يكاد رأسها يلتصـــق به ثم ترتد للخلف ليلامس ظهرها الحائط. فتاةٌ موجة. مد وجزر. اكتشفت لأول مرة أن هناك حدبة كبيرة أسفل عنقها. هذه الفتاة لم تُفارق هذا الكتاب منذ وُلِدت.

يـــدي اليُمنـــى متوترة، مُهتاجة في قفازها. قبل أن تعيد إلى الفـــتاة الـــورقة النقدية قرأت بإمعان شيئاً ما مكتوباً على وجهها، وتأففَت. بدوري نظرت للورقة   مركب شراعها على شكل قلب، شفتين   سهم يشير للعليا بالحرف R وسهم يشير للسُفلى بالحرف L. وكلمـــات حـــب   لا تفرطـــي في هذه الذكرى للأبد يا توأم الروح والجسد . كيف لم ألحظها؟

يدي اليُسرى أيضاً ارتخت، خملت كامرأة في وضع مُداعبة. وجدتني أعود فجأة لذلك الصباح الخريفي البعيد.. حين امتدت أناملي المرتعشة بورقة نقدية إلى فتاة، كنت أحب وجهها، وأحب أن أراه، ولا أحب أن يراه الآخرون!. الجنيه الوحيد أخرجته يومها من يتمه في جيبي.. وكتبت على أحد وجهيه عبارات حب لا أذكرها الآن، أو لا أريد، وقعت تحتها باسمي. ذلك الذي ظننت حينها أنني أعرفه وتركته بين يديها المُرتبكتين. كانت محبتي تنام على تفاصيل المئذنة المشهرة. تخفي ملامحها في تضاريس ورقة العُملة تاركةً البطولة لملامحي. غير أنني لن أنسى صباحاً آخر.. غامت خرائطه الآن ووهنت حدوده.. حين وقعت المعجزة السرية الصغيرة. كانت يدُ البائع تمتد إلى بالجنيه نفسه. بضاعتي رُدَّت إلى في وهلة.. والتذكار الذي اعتقدته سيحيا خالداً في حقيبة يدها، لمحت عليه آثار الأنامل التي تداولته.. حفرت فيه روائحها وتركته هائماً، كورقة شجر ضالة في هواء معتم.

تمَلمَلت يدي اليُمنى، وغضبت، حتى أنني اضطررت لتوجيه صفعات قاسية لها من يدي اليُسرى.. التي كانت ترتعش بدورها من الحنين لكتابة قصيدة رومانتيكية لم أكن بالطبع. لأسمح لها بها.

- فيه حاجة ؟

قالتها الفتاة التي انتبهت على شجار يديَّ الغريب، وبدأت تنظر لي في خوف.. بينما كنت قد فقدت القدرة على التحكم

فـــيهما، فقـــد تشابكتا والتحمتا في نزاعهما. قامت الفتاة مرعوبة وأخذت تقرأ المعوذتين. قلت لها ما فيش.. أنا تعبان شوية.

عندما التقطت يدي اليمنى المطواة من تحت القميص، لتطعن بهـــا اليُســـرى، جحظت عينا الفتاة، وقبل أن تكمل صرختها كنت أعبـــر بهـــا الـــباب الزجاجي، يدي اليسرى محكمة على فمها.. وباليمنـــى وجهـــت لها طعنات نافذة في قلبها. سقطت جثة هامدة، ولاحظت – لأول مرة أنها ترتدي دبلة ذهبية نحيفة جداً في يـــدها اليمنـــى. خـــرجت بسرعة. هدأت يديَّ أخيراً، خرجت إلى الشارع حاملاً الورد الذي التقطته من على المكتب، وتركت الباب الزجاجـــي يهتـــز خلفـــي، بعد أن قلبت، بخفة اللافتة البلاستيكية المكتوب عليها مغلق للصلاة "، بحيث تصير في مواجهة المارة.

أيقظتنـــي اليد الأنثوية من غيابي، ربتت على ذراعي ***"أنت ســـالم؟"*** أومأت موافقاً، قبل أن تقول صاحبة اليد: ***أنا هناء***. في تلك اللحظة أدرك كلانا أن لقاءه بالثاني جاء متأخرا جداً.. وربما في الوقت الذي لم يعد لأي منا فيه فائدة للآخر، أو هكذا ظننت.

كانت سلمى تحدثني كثيرا عن هناء، صديقتها "الأنتيم"، والتي ظلـــت دائماً طرفاً غائباً في علاقتنا.. اسماً بلا وجه، ولافتة دون جسد أعرفها ـ فقط في الظلال الشاحبة لصوت سلمى.

لم أرها أبداً، رغم أني تعرفت على صديقات عديدات لسلمى فـــي مناسبات متفرقة. سلمى لم تطلعني حتى على صورة لهناء، حتـــى أننـــي تعودت أن أسألها بين الحين والآخر، مداعباً ***"هيَّه هـــناء دي موجـــودة فعـــلا ولا شبح؟"*** كل ما عرفته عنها أنها

صحفية، مشغولة دائماً، مطلَقة وهو ما كوّن لدي انطباعاً أولياً بأن هناء شخص خطر. ظلت هناء دائماً هناك، بعيداً، ولم أحاول أبداً أن أســأل عــنها بجديــة أكبر.. رغم أن تفاصيل تافهة كثيراً ما اســتغرقتني في رحلة تعرفي على سلمى، التي كانت دائماً بالنسبة لــي عشــيقة غامضة.. والتي جاء موتها المفاجئ ليوقف كل شي كــنهاية مبكــرة، لا معنى لها. نهاية شعرت بها موجهة، بالذات، لي.. رغم يقيني أنها كان لابد أن تحدث.

يــبدو أنني كنت نفس الشخص بالنسبة لهناء: حبيب صديقتها الــذي يعيش بينهما طوال الوقت كحلم يقظة.. والذي عَرِفت عنه هــناء أشياء كثيرة حتى أنها لم تجد صعوبة في التعرف علي فور أن رأتني ألاحق هواء ظهيرة الأمس، الترابي، الكثيف والمتوحد.

انجذبتُ لهناء في ذلك اليوم بشكل غامض، لم أكتشفه إلا بعد ذلــك بســاعات، قبل النوم، حين ضبطتُ نفسي متورطاً بالتفكير فيها.. وليس في سلمى. كان المشهدُ في عيني هو هناء: الفتاة ذات الشــعر القصير الأحمر، التي منح الوداع ملامحها لوناً غامضاً. الفتاة التي عبرت قماش قميصي الداكن وقرأت ـ كما خمنتُ ـ كل ســطرٍ ونقــش يحمله جسدي.. والتي توقفت دموعي فجأة بمجرد عــبورها.. وظللتُ حتى مغادرتي وحتى الآن أسأل نفسي: كيف فاتني لعامين كاملين هما عمر علاقتي بسلمى أن أطلب رؤية هناء؟

7

تـــوقفت أمام النتوء الصخري الهائل، ومنحت سائق التاكسي الضـــجِر كل ما في جيبك من نقود. لم تعدَّها. هذا رزقه ونصيبه وأنـــت هنا لا تحتاج مالاً. المولد في قلب الجبل الراسخ.طقسٌ محـــاطٌ بالحجـــارة. تخـــتارُ ركـــناً وتستريح إليه. تجلسُ بشعرك المحلـــول ولحيـــتك المتروكة التي أثارت انتباه زملائك في العمل والعـــدَّادين فـــي المدرســـة. بعد قليل سيبدأ الجنون. كلُّ الأرواح المعذبـــة هـــنا. الدم المسفوك مُباح.. وأنت حُر. يداك مشهرتان. صرختك ضائعةٌ في صمت الحشود. جسدك الموشوم يراه الله ولا يسبر تعاليمه فانٍ. أظافر يديك مشطوفة، جارحة.

تمـــتدُّ إليكَ يدُ فتاة ب سطل لبن، تقول لك يا شيخي تشـــبه فـــتاة في المدرسة تقول لك يا مستر غُلامية هذه البنت. الخـــيط الســـميك الأبيض يسيل من بين شفتيك.. وتحت الأحجار المتهدمة عند تخوم المكان تدس مطواتك فيها لتكتمل سكرتُك. الدمُ المُهـــدر تتجرعه الأرض ذات الحصى الصغير المدبب الجارح.. يـــوقظ خطـــوات الأنبياء ويردد في أذنيك وقع أقدامهم المفلطحة

المشـــقوقة. آثارُهـــا محفورة لا تزال في كل شارع. تعبرها يوميا بحذائك الرياضي المُريح. الناسك يحيا هُنا في ركن. *أين أنت ؟*

ظنت الفتاة أن عضوك هو نصلك الوحيد، أن دم بكارتها آخر مـــا سينفقه جسدها من خسارات. تركتكَ لجسدها.. للحمها الحي. أنـــت الملتحـــي ذو الضـــفائر الـــذي رأت وجهه بعيون ميتة في مناماتها. تركتكَ تسحب عنها ملاءتها السوداء. قطعة قماشٍ واحدة تُغطـــي عـــورةً هائلة، بينما تهتز أنت يُمنة ويُسرة مُغلق العينين، لتـــرى. **حـــي**. تُقَـــبِّل يديك المقدستين. تحل أنت ضفائرها لتصير امـــرأة.. وتجـــدل هي شعرك السائل في ضفائر لتكتمل قداستك. قُبلـــتك على شفتيها.. لابد أن تكونَ صاحب آخر شفتين تتذوقهما فـــي حياتها. لا يُقَبِّلها رجلٌ بعدك. لعابك الدموي يرمح في ريقها. ســـمُّك فـــيِ لســـانك تتهجاه.. ومطواتك في قلبها الذي لم يعرف الحب. قررتَ هذه المرة أن تغور بالمقبض الخشبي وليس النصل، تـــريدُ أن تجـــرب طعنة الخشب العتيق في جسد شاب. الفتاة التي تعبـــر منامات يقظتك كشبح تتحسس الآن جسدك الموشوم، تلعق أبـــيات الشـــعر والأيقونات.بيديها المشعرتين تنزع حفنةً من شعر عانـــتك الهائش، وتستسلم أنت رغم ألم الاقتلاع الخفيف.. ثم تنزع مـــن شعرها خصلات مصبوغة، تكتم أنفاسها كي لا تفلت الشهقة بيـــنما تشـــعر أنت بألم انتزاعها المُر من المَنبت. تمزجهُما الفتاة وتُضرم فيهما النار. تُجرب اللذة معك في قلب الجبل.. في الشفق الـــذاهب إلـــى الزرقة كذؤابة خيط لهب.. بينما الدفوف والمزامير و"الصـــاجات في الخارج تعلن أن الله قريبٌ جداً. يتطلع الفقراء

لأعلـــى و لا ينظـــرون باتجاهك. تتوقف السيارات الفارهة بهدير خافت كي لا تفسد صلاتك.

تنتهـــي مـــنها. تتركها جثةً عارية تحدق لأعلى. تجرِّدها من جَلَبـــتها التـــي غلَّفـــت المضاجعة القرطين المعدنيين في أذنيها، حـــولهما دم دقـــيق متيبس.. الحلي البلاستيكية الملوَّنة في رسغيها النحيلـــين أحمـــر وأصـــفر وأزرق وأخضر. تُخلِّصها من فردة الخلخـــال الرخيصـــة في ساقها اليسرى.. ضاقت على اللحم حتى صـــنعت فيه طوقاً أبدياً.. ومن الشبشب البلاستيكي ذي الإصبعين الذي رفضَت تماماً أن تخلعه بينما تريح ساقيها على كتفيك لتسيل الـــتحايا مـــن شدقيك على جسدها المزغب. أنت قبَّلت فرجها. لم تُصـــدق.. وفـــتحت عينـــيها على اتساعهما لترى الصلوات تعبر جبهتك كسحابات.

ما بينَ مُعتَرَك الأشواقِ والمُهَجِ
أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حَرجِ
وَدَّعت قبل الهوى روحي لمَّا نَظَرت
عيناي من حُسنِ ذاك المَنظَرِ البَهجِ
و أضلعٌ نحلت كادت تقوِّمها
مِنَ الجوى كبدي الحَرَّا مِن العوجِ

في فمها رائحة حلوى رخيصة، بمذاق الموز. لا تزال شفتاها محاطتين بأثرها اللاصق الصمغي، اللزج. مُستحمَّة بصابون نفاذ رخيص أيضاً جعل شعرها - مع الحناء - متيبساً.نهداها صلبان.. وشارب خفيف فوق شفتها العُليا، المشقوقة، الداكنة.

أرى الطائـــرات الورقية من هُنا. ذات صباح قتلت طفلاً فوق ســطح وكتبت على "جلاد طائرته المزجج الشفاف سطراً رائقاً. حـــي. الطائـــرات فـــوق الـــناطحة الزجاجية هناك، بناية المرايا المتقابلة التي يتضخم فيها وجه المدينة وتَبرُز عظام وجنتيه. فوق أوثان المدينة الصَدَفية.. الإسمنتية.. المعدنية أرواح قريبة منه.. *هو الذي يعرف.. ويُدركُ.. ويتألمُ.. ويرى.*

و أدمُعٌ هملت لولا التنفس من
نار الهوى لم أكَد أنجو من اللُجَجِ
أهفو إلى كل قلبٍ بالغرامِ له
شغلٌ وكلِّ جفنٍ إلى الإغفاء لم يعقِ
لا كان وجدٌ به الآماقُ جامدة
ولا غرامٌ به الأشواق لم تَهِجِ
من مات فيه غراماً عاش مُرتقياً
ما بين أهلِ الهوى في أرفع الدرجِ

كفـــك اليُمنى عارية.. لن تدثرها الآن. يدُك اليُسرى مُبتردة. كلاهما هائمتان.. تتطوحان مجذوبتين. تتسلل الروح من أطرافهما وتـــنحل خطوط طالعهما. تصيران بئرين خاويتين ترى فيهما كلَّ شيء ما عداك.

الدمُ على مقبض مطواتك لا يغسله ماء. نقاط الحليب التي لم تجف بعد في فمك تتساقط بطيئة عليه.. القطرة تلامسه بعد دهر. يـــتحول إلى اللون الوردي على الدكنة البُنية للمقبض. ***<< يا من تلوثـــتم بـــدماء القلب.. كالوردة >>***. *تجويف الجبل* معتمٌ. حجرٌ

ســحيق يشــد *القاهرة كلها.يبقيها.. يرسيها. يرسخ فوق الأنفاس الهشة المؤقتة. المدينة ماريونيت مشدودة بخيوط واهنة إلى صخر* مطعون.أحشاؤها القطنية هُنا.تعمل نصلك في رُكن، تترك ذكرى في جثمان *الصخر الرمادي* الضارب إلى الخضرة، ثم تقتطع نتفة مــن الحجر وتضعها في فمك.. تبتلعها. صار الجبلُ في أحشائك. منذ قليل، قبل أن تقود الفتاة للداخل، رأيت وجهَك في ماء "الزير تُعيد دوائر الماء خلفه. ودسست يَدَك، ابتل طرف كمِّك.. وخرجت بعملة معدنية صدئة، عتيقة. ضغطتها بين أصابعك فالتوت.

تُعــيدُ الفتاة لملاءتها السوداء التي لم ترتَدِ تحتها طيلةأعوامها الثلاثة عشر سوى جسدها. كَفَنٌ داكن معروق يُلائم هائمةً لم تتعر سوى لك. سيعثرون عليها بعد أن ينتهي كل شيء. لن يلحظوا في بــادىء *الأمر سطور الدم الداكن، المُقفى، على عباءتها* المُظلمة. لكنني اطمأننتُ لأن على الأرض، بجوار جسدها، علامة : ***لا خير في الحُبِّ إن أبقى على المُهَجِ.***

8

يقولـــون إن لا أحد يُقتل مرتين علي يد نفس الشخص، غير أنـــي لـــم أصدق ذلك أبداً. حين صعدتُ السلالم بخفة وجدت باب شـــقة "ســـلمى مواربًا كما اتفقنا. يبدو مغلقاً غير أنه في الحقيقة مـــوارب. تكفي دفعة خفيفة لينفتح على الصالة شبه المعتمة، التي يختـــرقها ضوءٌ خافت قادم من أباجورة في الركن. سلمى تموت مـــن الرعب بينما تجلس في سريرها عارية، ليس لأنها تعرف أن طعنتـــي ســـتنفذ في قلبها بعد قليل، ولكن خوفاً من دخول غريب: لص ممن يؤرقون هدوء الحي الراقي كل فترة ويكون ضحاياهم فـــي أغلب الأحيان ـ سيدات في منتصف العمر. تخاف سلمى أن يقتلها عابرٌ ضد إرادتها، دون أن تكون اختارته.

بـــالأمس قتلتُ سلمي أيضاً، وبنفس الطريقة. طلبت منها أن تتـــرك باب شقتها مواربًا لأنني لا أملك مفتاحاً ولا أريد، ولأنني سأموت رعباً في المسافة بين ضغطتي على الجرس ومجيئها عبر الشـــقة الواسعة لتفتح، ولأن التفاصيل الكثيرة هي التي تقود دائماً للقـــتلة. إن كـــنت قاتلاً متسلسلاً من النوع النموذجي وهو نادر علـــى أيـــة حال، وربما كنت أنا آخر عباقرته ـ فأنت بالضرورة

تعرف أن الوقت المستغرق بين عبورك عتبة عمارة، وتيل مُبيَّت ينتظــرك فـــي شقة بالدور الرابع كما هو الحال مع سلمى لا يجب أن يتجاوز العشرين ثانية. حتى إن وجد "أسانسير كما هو الحال هنا أيضاً عليك أن تتجاهله تماماً. السلالم أكثر أمناً كل ثــلاث سلمات في قفزة واحدة. حتى لو نجحت العملية لن تسامح نفسك إن أنت استغرقتَ زمناً أطول.

بـــالأمس وكمـــا سـيحدث بعد قليل أزحت الباب بهدوء، بكــوع يــدي اليمنى، وأغلقته خلفي، بكعب حذاء قدمي اليُسرى. جاءنـــي صـــوت سلمى بهدوء مصطنع، بهمس الفريسة المرتعدة البعــيد: "مـــين؟" وأجـــبتُ "أنا" وفي الغرفة سالت الدماء من شـــفتينا فـــي قبلة طويلة، هي قبلتنا الأولى، والتي لم نحظ بها أبداً رغم ليالي المضاجعة المديدة. بعدها امتدت يدي اليمنى المتدثرة بجوانتي قطيفي قاتم الخضرة ـ بالمطواة إلى قلبها.. لتسقط سلمى قتيلة تحت قدمي.

اليوم سنكرر ما نجحنا فيه بالأمس، رغم أن سلمى الآن ميتة. جســدها يرقد في مقبرة، بعد أن أنهى زوجها ضابط المباحث إجـــراءات تشريح الجثة بسرعة شديدة، مُسدياً لها خدمته الأخيرة. كانـــت شاحبةً الآن، ليس بفعل الموت، لكن لأنها كانت تفكر: هل سـيكرر زوجهـــا الـــيوم ـ بدوره ـ ما فعله بالأمس، بالإخلاص ذاتـــه؟.. أم سيفتح تحقيقاً واسعاً هذه المرة، لتنتصر غريزة رجل الأمن التي هزمها التراب أمس.. وقد خلصته دموع ميتتها الأولى مـــن كـــل حنين طارئ؟. كانت خائفة اليوم، خشية أن تبيت هذه

المـــرة فـــي الـــثلاجة الضخمة انتظاراً لدورها في التشريح.. كما كانـــت تتوجس من الحقيقة الأكيدة بأن تكرار الميتة بطريقة واحدة ليومـــين متتاليين لن يكون أبداً حدثاً عارضاً من لصٍ متبطل تجاه امـــرأة أربعينـــية ثرية كما نشرت الجرائد الرسمية صباح اليوم بإيعاز من زوجها بل سيؤكد بحسم، أن الفاعل عشيق.

على أية حال لا أملك وقتاً كافياً لمناقشة تلك التفاصيل، خاصةً وأن سلمى الآن ميتة. إنني حتى لن أسألها عن هناء التي تعرفت عليها بالأمس للمرة الأولى ولن أعاتبها لأنها أخفت وجهها عني كل تلك الفترة.

مثلما فعلتُ بالأمس، تناولت إصبع "الروج" المنتصب على "الكومودينو لونه نحاسي، من نفس اللون الذي على شفتي سلمى، والذي يلائم بشرتها الخمرية بينما يبدو بلا أثر على بشرتي البيضاء. لو كنتُ امرأةً لاخترت "الروز البينك" لوناً أبدياً لطلاء شفتي. لونت شفتي بدقة وحرص. ضممتهما على بعضهما ثم فردتهما، مططتهما بتلك الطريقة الأليفة لامرأة أكيدة، وتركت لساني يتذوق طعمهما الجديد المحبب. تمنيت دائماً لو كان "الروج" طعاماً، نوعاً من الفاكهة، أوحلوى رخيصة. أشعلت سيجارة.. التهمتُ منها ستة أنفاس طويلة متلاحقة قضت على ثلثيها بينما أنظر للنافذة العريضة التي تتسلل عبرها المدينة ثم أطفأتها في المنفضة الخالية، النظيفة.

سيجارة الأمس أخذها الطب الشرعي، والذي خمن مبدئياً أن القاتل صديقة لسوسن كانت تربطها بها علاقة شاذة. لم أفكر

بالأمس أن تلك الصديقة يمكن أن تكون هناء نفسها. سيدعم ذلك وجود عضو ذكري من المطاط كانت سلمى تستخدمه في لحظات وحدتها، وطلبتُ منها أن تستخدمه لنصف ساعة قبل مجيئي وتتركه على السرير بحيث يكون، مع إصبع الروج، أول ما يتم العثور عليه والالتفاف له على طريقة التحقيقات البلهاء. بعدها سينتبهون لسطر شعري مكتوب بدم الضحية على ملاءة السرير. سيظنونه في بادئ الأمر، بالبلاهة المتفق عليها - دم بكارتها أو دماً متسرباً من جسدها القتيل. لن يكتشفوا للوهلة الأولى، مع تجاعيد الملاءة الخفيفة، أن شاعراً ترك نفسه هنا على يد قاتلٍ شاب.

اليوم.. هناك إصبع "روج" آخر، وعضو ذكري آخر، وامرأة أخرى، ونفس القاتل.

استبعَدَت التحقيقات المبدئية بالأمس أن يكون الفاعل لصاً، لأن شيئاً من مجوهرات سلمى أو محتويات الشقة لم يسرق. الجرائد الرسمية لم تذكر ذلك.. بينما بالغت الجرائد الخاصة فيه.. مؤكدة أن القتيلة كانت متعددة العلاقات النسائية، ومعروف عنها ميلها للسحاق.. وهذا أحد أسباب توتر علاقتها بزوجها. كلاهما يكذب. سلمى لم تكن أبداً سوى كلبة نموذجية للرجال، ولم تحصل أبداً على قبلة من امرأة. حتى القبلات البريئة لم تحصل عليها. حتى أمها لم يعرف جلدها أبداً ملمس لعابها.

قَبلَّتُها قبلة الأمس، وطعنتُها بنفس الطريقة. كل شيء تم بدقة إله. ومثلما حدث بالأمس، نظرتُ في ال ستوب ووتش مع أول

خطوة لقدمي بعد انحرافي عن ناصية الشارع، وتأكدت أن المسألة كلها منذ دخولي الشارع وحتى خروجي منه لم تستغرق سوى ثلاث دقائق، بالضبط، كما حدث أمس.

9

إذا سألني ليل بينما يرى مطواتي المُشهرة، تهتز في الهواء المواجه لعينيه كعقرب ساعة لماذا تقتلني ؟.. سأقول له بلا تردد لا أعرف.

أنا مؤرق. استيقظت على يديَّ هائجتين. نهشت اليُمنى اليسرى أثناء نومي. كادت أن تقتلها، استيقظتُ على دمائها الغزيرة.. مطعونةً في أكثر من موضع. رغم ذلك لم يوقظني الألم، بل حلم غامض رأيت فيه سوسن "، جارتي، المرأة الوحيدة الطاعنة، تلقي بنفسها من شرفتها.. ولكن الهواء.. وبدلاً من أن يسقط بجسدها إلى الإسفلت حملها باتجاه شرفتي حيث حطمت النوافذ لتموت على سريري. استيقظتُ مبترداً.. لأكتشف أن زجاج النوافذ مهشمٌ غير أن هناء لم تكن على سريري. وجدت يدي اليُمنى قابضة على المطواة، تكيلُ الطعنات لأختها. كيف أتت بها ؟!.. هل تحركت بجسدي إلى الصالة وتناولتها من الدولاب العتيق ثم عادت بجسدي إلى السرير؟ هل تقودني يدي إلى هذا الحد؟.. اليسرى أيضاً فعلت شيئاً شبيهاً. أتت بأوراق بيضاء من درج المكتب وانشغلت بالكتابة بدمائها.. بدمائي. استيقظت على

هذا المشهد القاسي.. ولكني لم أكن أشعر بألم، كأن هاتين الأختين ليستا لي. ذات يوم ستتآمران علي.. سأكون أنا القتيل تقتلني اليمنى وتكتب اليُسرى بدمي. اتفاق ممتاز.. بدلاً من الشجار اليومي. لعلهما ستشعران ذات يوم أنني أب يفرق بين ابنتيه.. وأن الحل كان أمامهما طيلة ثلاثين عاماً وأدارتا وجهيهما عنه بنبل غير مبرر. غير أنه، لو استبعد هذا الاحتمال، بتغذية الوقيعة بينهما.. بتفضيل واحدة عن الأخرى.. فإن إحداهما ستنتصر ذات ليلة. سأستيقظ بيدٍ راحلة. لا تزالان تتشاجران، والملاءة غارقة في الدماء وأنا أتفرج عليهما. للأسف.. لا أملك يداً ثالثةً تتدخل لفضهما. أي عضوٍ في جسدك يمكنه أن يتدخل لفض مشاجرة بين يديك؟!.

هذه مطواة "ليل"، مطواتك يا شبيهي وشريكي في نصل واحد. مطواتك يا من يجب أن يغيب لأشرق وحدي. اشتريتها يوم حصلت على مخطوط الناسك شيخي ودليلي. اسمك يا ليل محفور في خشب مقبضها العتيق العامر بالنقوش وكذلك في لحم سلاحها المُطفأ الذي ينام فيه الصدأ. يومها قال لي البائع:

ـ خد بالك دي ملعونة.. بيقولوا انها لازم تقتل صاحبها علشان ترتاح.

كان الدمُ يرقد في خلاياها. أنا رأيته ثقيلاً، ثخيناً، لزجا، يدير منامات خطرة. هل عثرت عليك يا ليل في مولد ابن الفارض، وأنت ترقص كمجذوب تسللت روحه رويداً؟.. أم رأيتك بينما أراجع استمارات التعداد، والمُراهقة الصغيرة تخبرني

مالوش اسم غير ليل.. وعايش في أوضة في الترب والناس بتقول إنه هايم.

أيـنا كان يبحث عن الآخر ؟.. أينا عثر على شبيهِه؟.. أنت نفسـك قلت لي سأموت قتيلاً بنصل مطواتي التائهة منذ زمن.. فهل كنت تعرف أنها تنام ملاصقةً للحم بطني؟.. أنا بالذات؟!.

ستسألني من جديد يا ليل لماذا تقتلني ؟..

لا أعـرف علـى وجه الدقة ولا أريد أن أعرف.. ولكنني علـى يقين أنك لابد أن تقتل كي أُخلِّص قطعة جديدة من روحي.. قطعـة تمتلكها أنت، تحيا بين يديك هاتين. لأنك تعرف جانباً من السـر. لأن الناسـك قـال إنـك لابد أن تذهب. سأخلص روحي وأخلصك.

هل تكرهني إلى هذا الحد ؟

أنـت تديرُ يديَّ بمطواتك. أنت شيطان. تسيطر علي.. يدي اليمنـى تطلـب دمـك قرباناً كي لا تقتل اليُسرى.. يدي اليُسرى تطلـب دمك مداداً لقصيدة عن شيخٍ أزرق محلول الشعر.. قصيدة عبقرية سيخسر العالم كثيراً لو ظلت دفينة راحتها الجريحة الآن. لـو لـم أفعل سأصير أنا الضحية، وليس من المفترض أن تكون قيامتـي الآن. لـم أعد أنام يا ليل، يا شيخ الليالي المتوحد. وربما أكـون الآن، فـي تلـك اللحظة، بينما أعانقك كأب في عتمة تلك المقابـر، وسلاحي / سلاحك يغوص في قلبك.. نائماً. ربما يكون كـل مـا يحدث حلماً.. تماما مثل أحلامك بـ"جابر التي تستيقظ منها بلا نقطة دماء.. وبحياة مُضاعفة.

ولكنني لست نائماً الآن.

أنـــا نائم يا ليل وهذا يكفي.. يكفي أن يكون أحدُنا نائما لكي يصير كل ما يحدث مشهداً في حلم.

المقابـرُ معـتمةٌ وصامتة، رغم أن الأشباح تتنفس في العادة بأصـوات عالـية. اختـرت مكاناً ممتازاً لإقامتك يا ليل. تصلنا أضـواء المديـنة الكبيـرة بالكاد، فقط لتُضيء الشواهد. لا تنسى القاهرةُ موتاها أبداً سكانها الأصليين. النازحون من أمثالي ليس لهـم هُـنا مقابـر. عـندما أموت يا ليل لن أدفن هُنا. سيعودون بجثمانـي إلـى بلدتـي مقبرتي الأصلية.. وربما يعيدونني إلى المصحة، وأهرب كالعادة لكن في هيئة هيكل عظمي نحيف متأنق يـرتدي ملابـس السهرة. في مدينتي الشمالية سأطل من مقبرتي علـى القاهـرة البعيدة.. هل لك أن تتخيل حجم الحسرة ؟!. أكره المـدن الصـغيرة.. الجميع فيها يتقنون التلصص.. لذلك تُلائمُني هـذه العتمة: القاهرة تضيء حافة النصل، تمنحه لمعته المطلوبة. لـديَّ أمـل صـعب ياليـل، أن أتمكن بنفسي من الإشراف على جنازتي. لا أريدها بذخة مبهرجة لكن أنيقة دون تَزيُّد. لا مانع من الصـراخ شـرِيطة أن يقتصر على السيدات العجائز، فحناجرهن مشروخة ومعذبة لكنها غير مندهشة. سأختارهن بنفسي كورال مـن العظام. وأحبُ أن تكون في الليل. للأسف يستحيل أن تتحقق هـذه المعجزة الصغيرة في بلدتي. الإمكانات هناك محدودة جداً. أعرف رجلاً هناك كان حلمه الوحيد أن يشاهد جنازته مثلما أفعل الآن، لأنـه كـان يخاف من غياب تفاصيل يحرص أشد الحرص

علـــيها. ماذا لو أودعوه المقبرة الخطأ وذهَبَت كل دعوات الغفران لغيـــره ؟ مـــاذا لـــو أمطرت السماءُ وزمجرت الرعود وأضاءت البروق لينزلق نعشه مُهاناً في الأوحال ؟. سيكون مشهداً مُضحكاً، وســتمحو خفـــة القهقهـــة الجماعية كل قداسة للدموع. ناهيك عن مصائب أكبر يا ليل.. فكر معي قد يموتُ في اليوم نفسه شخصٌ أكثـــر مـــنه حظـــوة، وله أبناء أشدَّاء سيُقدِّرون بعين فاحصة كل مســاهمة مخلصة في خروجه اللائق من الحياة.. وبنات جميلات يســـتحققن رد الجمـــيل لمن نفخ من روحه في أجسادهن. ساعتها ستخرج المدينة الصغيرة كلها خلفه تاركةً الميت الآخر بلا يدٍ تمتد لإحدى أركان نعشه.

_ مشكلة.. وماذا حدث ؟

_ عـــاش الـــرجل حياته كلها يفكر في تلك اللحظة.. **حـــياته كلها**.. إنها عبارة غير دقيقة إذ تشي بانقضاء تلك الحياة.. لا.. ما يزال الرجل حيّاً.. ينتظر الموت على عتبة بيت منسي وقد تنازل عن كل كبريائه السابق... ومايزال الموت يرفض.

ما علينا. أطلت عليكَ يا شيخي دون داعٍ. سأبحث هذا الأمر مع ميت آخر.

نحن الوحيدان هنا على قيد الحياة يا ليل.. أربعة أياد ومطواة واحدة. تتشبث بالحياة الآن كأنك لم تعشها.. كأنك وُجِدت فقط لتتذكـــرها.. كأنك لا تعرف أنها خارطة تجاعيدٍ ضخمة لا تطلعك علـــى جانـــب من وجهك إلا لتترك فيه نُدبة. بعد لحظات سأصير وحـــدي علـــى قـــيد الحياة في هذه المقابر. إليك بسرٍ جديد في

مدينتـــي لـــم تزد رقعة المقابر رغم أن الأموات تضاعفوا كثيرا مـــنذ مـــولدي. مدينتي الخالية يتزاحم الموتى عند تخومها. نعم.. القاهـــرة لا تنســـى موتاها، ولن تنساك. بمجرد مغادرتي ستصفو المقابـــر لأبـــنائها البـــررة. هل فهمت يا ليل ؟.. إنني أقتلك لأنك تشبهني.. لأن مطواتك لن تصير لي إلا بفنائك. أنت تعرف هدوء القتلة عندما يودّعون أشباههم.. تعرف تلك السكينة يا ليل.. ألست قاتلاً قديماً ؟!.

هل اتخذت القرار؟

ربمـــا.. وربمـــا قرر شخصٌ آخر ذلك ناسك قديم يقود روحـــي.. ناســـك اختارنـــي لأخلفـــه فـــي تخليص المعذبين من عذاباتهم.. وأنت يا ليل رجل بيدين معذبتين ـ مثلي تماماً ترتقان للفانـــين أحذيـــتهم التالفة في النهارات.. إحداهما كانت قاتلةً ذات يـــوم، والأخـــرى خـــريطة مصائر.. بوصلة تحدد لك الضحايا.. أرأيت كم نحن متشابهين ؟.. هل صدَّقت الآن أنك تقود يديَّ من مكمـــنك نحـــو حتفها وزوالي.. حتى صرتُ أحلم بِك في ليالي مشيي الأبدي على حافة السطح ؟.

زجاج النافذة مهشم. بدأت الطيور تحتل سماء الغرفة. أخيراً هـــدأت يداي، نامتا مُنهكتين. تتبقى ساعة على خروج سوسن جارتي الشائخة إلى بلكونتها.

فكّـــرت، قبل أن أقبض روح ليل "، أن أطلعه على حكاية الإسكافي ذي النعلين المُجنحين"، والتي سجَّلها المُدوِّن المجهول علـــى لسان الناسك – سبع مرات في المخطوط. ما رأيك يا ليل ؟

حكايــة لطــيفة. المدوِّن – ويبدو أنه كان شغوفاً بالحكاية – رسم علــى أحد الهوامش صورة للإسكافي كما تخيله شخص نحيف أســود اللون أبيض الشعر تقطر الدماء غزيرة من موضع قلبه.. يبتســم كــأن الدماء خلصته من عذابه. وجه الإسكافي المُتَخيَّل لم يكــن سوى وجهك، يكاد ينطق في صفرة الأوراق الهشة العتيقة.. ومثلك يا ليل، كان يرتدي جلباباً على اللحم وقدماه حافيتان.

في الحقيقة كان ليل ضحيَّة مثالية منذ اللحظة الأولى التي رأيــته فيها.. فقد توترت يدي اليُمنى وكذلك فعلت اليُسرى. هكذا أدركــت أننــي أمام ضحيةٍ مكتملة.. تريد يدي اليُمنى دمها وتريد اليُســرى أن تكتب به سطراً من الشعر وقصيدة في ديوان. لتكن أنت يا ليل قصيدتي الجديدة.. سلمى الآن بعيدة. قتلتها لأنها أيضاً تشــبهني، كانــت تقــود يديَّ، لكن على العكسِ منك كانت يدي اليسرى وقتها دائما تنتصر، يدي الشاعرة. قتلتُ مُلهمتي، الشيطانة التــي كــادت أن تــودي بي.. والتي كشفت – مثلك – جانباً من الســر.. صــارت تحركنــي مثل قطعة شطرنج. في مدينة مثل القاهــرة، لــيس بوســعك إلا أن تكون – على نحوٍ ما – وحيداً. أستطيع أن أحصي لك وحيدين كثيرين إن أردت: بائعة فقيرة ذات حدبة ومصور فوتوغرافي يستعير ابتسامة وفتاة تائهة في طقس.. طفــل يطيِّر طائرته فوق سطح ورجل ينظر إليها من فوق كرسي متحــرك.. ســلمى وجابر و...ليل و......و......و كلهم وحيدون يا ليل. يكملون للمدينة زينتها الضرورية. يطلعونني على جانب من وجهي. يوقظون يديَّ.

هـــاه.. أتـــريد أن تســـمع حكايتك في المخطوط ؟.. سأتلوها عليك، تماماً مثلما كان يفعل الناسك مع مُدوِّنه.. اسمع يا ليل...

علمـــتُ أيهـــا المُـــدون أن الإسكافي يخفي وراء طبقة جلد وجهــــه الـــرقيقة الهشة وجه الشيطان المحترق المطرود، وأنه بكفــيِّه الطفلـــين اللـــذين ضَنَّ عليهما طول الرفو بقسوته ينتظر قـــبض الأرواح المحصنة من الغواية حيث يباغتها خفيفاً كشمس تحرق نفسها وتتغذى على موتها. وعلمتُ أنه ما زارنـي هُنا فـي خلوتـــي إلا ليقبض روحي، فقبضتُ روحه. لعلك تعرف أنه كان يجلـــس مقرفصـــاً عـــند البحـــر على جبل من المحار، كأنه إله المصـــائر.. وهـــو المكـــان نفسه الذي قذَفَتْ به إليه منذ أمد يدٌ ملولة من سفينة ثملة، في مهد ممزق ودموعٍ باتساع الدنيا.

علـــى يمـــين جبل المحار جبل نعال وعلى يساره جبل نعال. نعـــالٌ منسية، تخص العابرين، الذين لا يتذكرون ما نسيوا إلّا فـي مكـــان آخـــر بعـــيد تكـــون عنده العودة مستحيلة. يستبقيها لهم وينتظـــر يوماً سيقابلهم فيه على أسرَّة موتهم ليذكرهم بما تركوا ولـــيطلعهم علـــى وجهه الحقيقي النقي.. مرآته الأكثر سواداً فـي هذا العالم الغريب المتلاطم.

عـــاش أشـــد لحظـــات حياته يأساً حين ذهب رجالُ المدينة وأطفالُها جميعاً للحرب وعادوا بسيقان مبتورة، فلم يعد يملك إلا الشـــرود علـــى جبلـــي المحـــار.. ناظراً في كف يده التي تحمل المصـــائر. عـــندما يستبد به الملل كان يجلس وسط النساء على عتـــبات الدور، يسأل عن الغائبين ولا يتلقى سوى أسماء موتى

جـدد. لم تكن النساءُ ذا نفعٍ له. كنَّ جميعاً حفاة، وبالمثل لم يكن هـو يمثل لهن أكثر من بذر حكايات شاذة. لم تعد إليه مكانته يا عزيـزي إلا مع النسل الجديد الذي انتظره طويلاً.. بعد عودة ما تبقى من رجال.

كان نعلاه غريبين. صُنعا من طبقة هشّة بلون جلده، وعلى جانبـي كـل مـنهما انتصـب جناحان صغيران بألوان متداخلة كجناحـي الفراشة، لا يكفان عن الحركة. لم يتعرضا أبداً – على رقتهما – للتلف. كانا في واقع الحال خالدين. يوم أتاني قَبَّل يدي المقدسة. سال لعابه على مصائر كفي المتقاطعة.. ثم أخبرني أن شـبحاً يمر عليه كلَّ صباحٍ بساقٍ واحدة، خمَّن أنه لأحد العائدين من الحرب. يترك له نعله، فردة واحدة، يطلب منه رتقها.. يذهب ويأتـي في اليوم التالي بفردة جديدة ولا يستعيد السابقة.. حتى صار له جبل نعال ثالث يخصه وحده.

أذكـر أنـه قال لي يومها كل واحد في هذه الدنيا، سيدي، يولد مرتدياً نعليه، والجميع يُفرطون في نعالهم لأنهم لا يعرفون بوجـودها مـن الأصل، ولكنني درَّبتُ نعلي على طاعتي فلم أكن أبداً بحاجة لاستبدالهما بزوجٍ من النعال الفانية.. وبمرور الوقت نبـتت تلك الأجنحة التي تمكنني من التحليق فوق البيوت. عاش طـويلاً ولـم تعرف الشيخوخة إليه سبيلا. لم تكن حياته تنتظر طعـنة مفاجئة تبدلها بأخرى، وكان يقول إن لا أحد يموت غريباً عـن أرضه إلا إذا قرر هو ذلك، وإنه لم يتخذ بعد قراره بالموت فـي بلدتـنا الغريبة التي لا يعني لها البحر أكثر من رتق النعال

علـــى شـــاطئه. علـــى أيـــة حال جثته ترقد بالداخل، في الغرفة المغلقة، خذ المفتاح وتفرج عليها إن أردت لكن لا تقرب النساء. تسـلَّى أيهـا المـدون لحين استيقاظي في المرة القادمة، لأنني مـتعب هذه المرة. قد أموت لعدة أعوام. الخلود عذاب لا يدركه إلا خالد مثلي. إنه يرقد بجانب شبحه ذي الساق الواحدة. يتنفس بصـعوبة. ربمـا لا يـزال يفكر في جبلي النعال المتروكين عند مكمـنه.. الـنعال التي أوكل إليه رتقها ولم يسعفه عمره فبقيت كماهـي يـا مدونـي وولدي وكاتم أسرار ميتتي.. تاركةً ملايين الحفـاة الغـرباء ينتظرون في أشتات العالم القاسي عودة شبح الإسكافي الميت.

10

مع أول خيوط الفجر، خرجت سوسن إلى بلكونتها، كما تفعل يومياً.. وبدأت تنشر كمية ضخمة من "الغسيل على حبالها.. هي ملابس زوجها المتوفى وأبنائها الذين لم تنجبهم. تقف متأنقة، بكبرياء شائخ، في تنورات قصيرة تلائم آنسة في بدايات قرنٍ مضى.. غير أنها غائبة على الدوام كأنها استيقظت ذات صباح لتكتشف أنها تعيش بدلاً من شخصٍ آخر. ورغم أن خصلات شعرها الأبيض كانت تتطاير مع هواء الصباح الخفيف كعلامات رعب.. إلا أنني أكتشفت أن لها عينين جميلتين، شابتين، وأن جسدها خفيف حتى أنها لو قررت في المستقبل أن تقفز من البلكونة لتموت، لن تتألم.

بدأت أُدخن سيجارة، كما هي عادتي، مستنداً بنصف جسدي على حافة البلكونة.. بينما انهمكت هي في عملها اليومي دون أن توجه لي نظرة. منذ جئت إلى هُنا، صارت سوسن هي شريكة صباحاتي الأشد سرية وغموضاً كنت أتأمل وجهها كل صباح كأنني أودِّعه.. وكأن المرأة التي أفسدت علي وحدتي، وشاركتني فيها دون استئذان.. والتي تُخلص غرفها مع كل طلعة شمس من

الملابس ليست سوى أخت منحتني حق جيرتها وحرمتني رغم ذلك - حق أن تموت بين يدي.

يومياً، وبعد خروجي إلى بلكونة شقتي المرتجلة بدقائق، ألمح الشيش ذا الضلفتين ينفتح. تدلف سوسن إلى البلكونة فجأة كأن يداً بالداخل قد قذفت بها عنوة لتواجه الضوء. لم تنظر إلى أبداً طيلة ثلاثة أشهر، كأنني لم أوجد، كأن ضيفاً جديداً لم يعد يراقب يديها. ربما هذا هو أكثر ما استفزني في تلك الجارة. يؤلمني جداً أن يُطلعني شخص على حقيقة أن وجودي شيءٌ هامشي.. حتى لو لم يقصد. لو غادرت هذه الشقة الآن، وللأبد، لن يتغير شيء في العالم.. مثلما لم يتغير شيء عندما جئت. لن تشعر امرأة تسعينية أن شخصاً يعرفها لم يعد هُنا.

ها هو صوت همهمتها الخفيضة يصلني دون أن أميز حرفاً.. أفشل دائماً في التقاط أية كلمات من هذه الشيخة.. وحتى عندما تصرخ في بعض الأحيان بسباب متداخل غضباً على الطيور التي تركت مخلفاتها على ملابسها.. يصلني الصوت فقط. عندما تنتهي من صف الملابس على حبالها كانت تنسحب فجأة أيضاً. لا تستدير.. بل تتحرك للوراء، في خط مستقيم، كأن نفس اليد التي قَذَفَت بها تجرجرها للداخل. لا تعود المرأة للظهور بقية اليوم. لا أعرف لماذا ينتابني خوف غريب بينما أتطلع للملابس المجعدة التي تهتز أمامي، بتؤدة. تتحرك أكمامُها بوهن كأطراف عاجزة كنت أشعر أنها أشباح تحرس وحدتها.

اليوم سبقتني إلى البلكونة، مما سبب لي إحباطاً غير مبرر كانت تقف – لأول مرة – في عباءة بيتية واسعة، زرقاء، اختفى فيها جسدُها كأنه هواء. راحت تنشر لأول مرة ملابسها عشرات الفساتين ذات تصميم واحد تقريباً لكن بألوان مختلفة. بالأنامل التي تجيد عملها، بدأت تعرض تنورات ماضيها أمام لا أحد. وفكرتُ ربما صدَّقَت اليوم فقط أنها امرأة وحيدة.. ولم ألحظ – إلا بعد انصرافها – وجود مشبك غسيل خشبي على أرضية بلكونتي، ثُبِّتت فيه قصاصة ورق مصفرة، حائلة.

الخطاب الغرامي، مُذيَّل بتاريخ بعيد ١٩٤٦/٨/١٢ بالضبط منذ ستين عاماً, مكتوب بخط رقعة جميل، بحبر أزرق صار حائلاً الآن وأقل دكنة. كانت الكوليرا. الحبيب يكرر عبارة: لو كنت لا تزالين على قيد الحياة يخاطب امرأة ميتة في الغالب. يسألها عن أخبار الإسكندرية. المرأة سكندرية إذن. تنورة ساحلية تحيا بداخلها العظام. يتحدث أيضاً عن حرب وشيكة. هل كان ضابطاً؟.. دائماً تفرد المرأة على حبالها بذلة ضابط قديمة الطراز، وبالية. ربما تزوجها حبيبها ذلك نفسه فيما بعد رغم أن ذلك سيفسد الحكاية فضلاً عن كونه سيفقدها شاعريتها. المثير أن يكون حبيبها قد قُتل في الحرب، أو قضت عليه الكوليرا.. فتزوجت الآنسة أول شخص طرق بابها.. وظلت محتفظة ببذلة حبيبها التي أوصى بأن تذهب لها- في ركن معتم بدولابها. تخرجها حين تصير وحدها وتتشممها وتبكي. في المساء تنام مع

زوجهـــا بـــإخلاص، مغمضة عينيها على رجلٍ آخر وبعد وفاة الزوج.. تخرج البذلة أخيراً للنور لتعلن أمام العالم الصامت الذي لم يعد يراها أنها عاشت أسيرة شخصٍ واحد.

فـــي المســـاء، رحت أقرأ الرسالة مرة أخرى، قبل أن يحين موعد لقائي اليومي بجارتي عند الفجر.. والذي حدّست أنه سيكون هذه المرة مختلفاً.. وفي الحقيقة فقد كنت مرعوباً، ولم أكن أدري مـــاذا ســـأفعل معها هذه المرة، ومذا ستفعل هي. هل ستنظر في عينـــي ؟.. هـــل سنتبادل حديثاً مقتضباً.. أم ستتجاهلني مثل كل مرة، مكتفية بتطيير رسالة جديدة إليَّ ؟. استوقفتني عبارة بعينها، ووجدتنـــي مأخوذاً بالرعب " قراءة شخص سوانا لهذا الخطاب تعني موتك وموتي كيف مرَّت علي هذه العبارة في الصباح ؟! وفكـــرت هل تدعوني المرأةُ الوحيدة لقتلها؟!.. كيف عرِفت أن لي يداً تسير في طريق الدم ؟..

لـــم تظهـــر سوسن في الفجر. حين خرجت للبلكونة مرتبكاً وجـــدت بذلة الضابط نائمةً على حافة البلكونة. أكمامُها تترنح في الهـــواء الخفيف.يبدو أنها قذفت بها في المساء وقررت ألا تخرج. أصـــابني إحباط طالما تمنيت أن أرى سوسن في العتمة. لكن.. ربمـــا لـــو كـــنت ظللت طيلة الليل في البلكونة ما خرجت.عيناها تعمـــلان من خلف الشيش. لم تفعل ذلك إلا عندما تأكدت من عدم وجودي.ربما خشيت سوسن المواجهة الأولى، مثلي.

البذلة على مقاسي تقريبا. يبدو أنه كان على نفس الدرجة من نحافتـــي، غير أن قامته كانت أقصر بسنتيمترات قليلة.الأكمام لا تغطـــي رســغي.. وكــذلك البنطلون قصير بعض الشيء. تأملت نفســي أمـــام المـــرآة. انتفض جسدي، وشعرت بأنفاسي تنسحب منـــي.وضـــعت يديَّ بشكل تلقائي في جيبي البذلة، لألامس جسدا معدنـــياً دقيقا، وورقة. مفتاح صغير وخطاب مقتضب ***لن أغادر الشقة إلا إذا أتيت.***

خـــرجت مـــن جديـــد للبلكونة.المشهد أمامي رمادي. فتيات صـــرن الآن ســـيدات شائخات يمشين مشبوكي الأيدي مع شباب مفتولـــين، شعورهم لامعة مغسولة بالصابون. الشارع مبلط تعبره ســـيارات كُـــتب على لافتاتها خصوصي مصر أمعنت النظر أمامي. عينا سوسن ليستا خلف الشيش.. أو هكذا يبدو لي.

بملابـــس الضـــابط قطعت السلالم باتجاه شقتها. فتحت الباب بســـرعة. دار المفـــتاح أكثر من ثلاث دورات في العُقب لقد أغلَقَـــت المرأة الوحيدة الباب من الداخل. كما توقعت، كانت شقة مـــن زمـــن آخر. غارقة في العتمة كأن ذلك الذي بالخارج ليس الصباح. طراز الأثاث عتيق، ورائحة ثقيلة تغمر المكان. لم أتخيل أن يكون سقفها عالياً لهذه الدرجة، بعيداً وعامراً بالثريات في كل الغـــرف.أعملت يدي في كل مفاتيح النور ولم تعمل. المرأة كانت تحيا في العتمة.

جســـدُها كـــان ممدداً على سريرها العالي ذي الأعمدة، في الغرفة التي تطل على بلكونتي بالذات. حاولت أن أوقظها، بنحنحة

فـــي البداية، ثم بكلمة **يا مدام** ولكنها لم تستجب. بدأت أهز جسدها بــرفق.. ثـــم بعنف. جسدها أزرق ومثلج. عيناها مفتوحتان على اتســـاعهما. جســـدها متيبس.اختارتني سوسن لأخبر الناس بموتها قـــبل أن تتعفن في الظلام. ربما انتحرت. ربما مات حبيبها القديم الـــيوم بالذات.. تحقق وعده بميتة متزامنة لكليهما. لم أجرب قبل ذلك أن أقتل جثماناً.

أي لـــون ســـيكون عليه دمُ امرأة ميتة إذا تجولت مطواة في جسدها ؟.

11

ذات صـــباح أيقظ الدجاجُ الناسكَ للمرة الأخيرة من ميتته. لم يكــن الجــزء الأكبر من جسده قد تحلل بعد، وبشكل أدق، لم يكن المـــوت الطويل المتقطع قد أتى بعد على الأشياء التي لا يستطيع الحياة بدونها.

كان على مُدوِّن مذكراته أن يظل مقرفصاً بجانبه، بلا نوم، محدقاً، في انتظار واحدة من يقظاته الحادة المفاجئة حيث كان الناسك ينتصب فجأة بينما يغادره اللون الأزرق وتقفز كرتان حمراوان على وجنتيه.. ليُملي جملاً تلغرافية قصيرة.. أو سطوراً موزونه من الشعر.. أو حكاية من "ألف ليلة وليلة" وأحياناً ينخرط في إلقاء صفحات طويلة من طفولته كانت معها يدُ مدوِّنه توشك على التوقف تماماً، قبل أن يُغمض الناسك عينيه فجأة كما فتحهما فجأة، عائدا لسباته العميق في العالم الآخر دون أن يعلم أحد متى سيقطعه من جديد.

كان يعودُ في كل مرة بتشوهات أكبر وبنظرة رعب لا تُقهر. يدندن بأغنية، أو يلقي بنكتة إباحية، وأحياناً كان يتكلم لغة غريبة

مجهولة خمن المدوّن أنها اللغة التي يتحدث بها الموتى مع بعضهم وكان على المُدوّن أن يكتب كل ذلك لحظة إلقائه وبنفس السرعة اللاهثة للشفتين وإلا فسيضيع الكلام للأبد، وكان عليه أيضاً أن يظل بلا نوم حقيقي حيث كان الميت يستيقظ بلا إنذار. ولن ينسى تلك الفترة الكابوسية حين ظل الميت نائماً لثلاث سنوات متواصلة لم يتحرك له فيها عضو، واستيقظ ليقول عبارة واحدة **أين أنا؟**.. دوّنها بهدوء، قبل أن ينام الميت من جديد لعام ونصف. بعده لم تعد أطول ميتاته تتجاوز الأربعة أشهر.

كانت لحظات الإثارة الحقيقية تأتي حين يستيقظ فجأة ليسرد ببطء جميل واحدة من قصص حبه التي لا تُحصى ومضاجعاته العجيبة، كالمرأة الثمانينية التى تجّول في أنحائها بينما كان فى التاسعة.. والفتاة ذات الأربعة عشر ربيعاً التى ضاجعها ليلة أتم المائة الأولى من عمره. كان يفعل ذلك بذاكرة حادة لم تغب عنها أتفه التفاصيل، ولكن واحدة فقط من هذه القصص كان يكررها كل عدة أعوام، بنفس الطريقة، بالحركات والسكنات وتلونات الصوت، دون أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً.. وكل ما كان يفعله المدوّن أنه كان يراجع فقط خلفه ما يقول، ليتأكد أن لا شيء يحتاج للإضافة أو الحذف، بينما ينصت باستمتاع لحكاية حبه مع الفتاة التي كانت تماثله في السن لحظة بلحظة إذ خرجت شهقة بكائها الأولى للدنيا تماماً مع شهقة بكائه. ويسألُ المُدوَن: ***ألا تعرف شيئاً عنها؟*** فيهز المدوّن رأسه بالنفي، لينخرط الناسكُ في

بكاء حاد ملتاث وصاخب، يظل يخفت تدريجياً بينما تنسحب كرتا الدم من وجنتيه ويبدأ اللون الأزرق في احتلال جسده من جديد.

كان كلما استيقظ ينظر حوله بإحباط وهو يكتشف أنه عاد ليتنفس هواء الأرض الساخن الخانق، وتبدو نظراته كأنها تخص طفلاً أخذوه من سريره عنوة ليُطلعوه على شكل مقبرته.. ولكنه – وللمرة الأولى – لم يستيقظ بشكل طبيعي في ذلك الصباح البعيد. أيقظه الصراخ الرفيع الحاد المخنث للدجاج.

كان هناك بشرٌ قليلون بالخارج توقفوا عن السير لالتقاط الأنفاس في ذلك الصباح الذي سطعت شمسه مبكراً. كانوا يصطفون في طابور قصير، تسري بينهم همهمات خافتة ملولة. ومد وجهه ليرى الضوء لأول مرة منذ أعوام طويلة. سأله المُدوِّن: ***هل تعرف الميت؟***، فأجاب بوجه خالٍ من أي انفعال ***نعم.. أعرفها***. واستدار للمدوِّن قائلاً بلهجةٍ آمرة : ***يمكنك الآن أن تنصرف***. وقبل أن يهم بإبداء أي استفسار، قاطعه بحسم: ***أخبر أبنائي أن يأتوا على عَجَل قبل أن تفوح الرائحة.. واحرق هذه المخطوطات قبل هبوط الليل.***

عندما وقع المخطوط بين يديَّ سألت نفسي: لماذا لم يحرقه المدوِّن الملعون كما أمره سيده؟. لماذا احتفظ به حتى وفاته، تاركاً صفحاته لعنة منسية على مدينة تودع كل مساء خطاياها؟. في إحدى الصفحات استوقفني هذا المقطع ***قتلتُها لتصير أكثر جمالاً. كانت في حياتها امرأةً قبيحة.. كان أنفُها طويلاً مستفزاً..***

وشفتاها رفيعتين مقززتين.. شارب خفيف فوق الفم.. خط من الزغب الكريه الأخضر.. وربما قتلتها من أجل هذا الشارب بالذات. ها قد اختفت الدماء التي منحتها دائماً مسحة الحياة القبيحة في سيماها.. صارت زرقاء كأميرة منام. بات أنفها دقيقاً.. اكتنزت الشفة السفلى فجأة وتدلت كثمرة ناضجة.. هل يفعل الموت ذلك؟.. بل القتل أيها المُدوِّن التعس.. الموت يحوِّل الإنسان لجثة كريهة منتفخة.. يأتي بالجوارح من السموات ويوقظ الديدان في أعماق الجسد..أما الفتق المفاجئ الذي تصحبه صرخة القتيل وابتسامة القاتل.. فإنه يخلص الجسد من الدم الفاسد.. يترك ندوباً مفتوحة تغادر منها الأرواح الدخيلة"

بجانب المقطع، على حافة الصفحة، وبشكل طولي كتبت يدٌ غريبة

هي يدُ المدوِّن على الأرجح - سطراً بلونٍ أحمر قانٍ: ***كان طريقه إلى الله محفوفاً بالدماء.***

12

فى ملابس الضابط الأليفة، رأيتك يومها تغادر بناية المباحث، وعشـرات الطـيور تتحرك بأناة على كتفيك ورأسك.. حتى أنها أخفـت رتبتك تماماً، جردتك من أقدميتك. وعندما اقتحمت شقتى بالقـوة – بعنف ضابط المباحث الذى يفتك الصداع برأسه بسبب أصـوات الطيور، والذى فقَدت بذلته هيبتها بفعل مخلفاتها الطرية النفاذة – تعـرفتُ علـيك.. وأسديتُ لك خدمة عمرك. تحركت الطـيور مفـزوعة بمجـرد رؤيتى وانطلقت تحلق برفيف ثقيل، مـرعب، فـى سـماء الصـالة الشاحبة التى أردتها دائماً سيئة الإضـاءة. أجساد داكنة، وبالتأكيد عمياء.. تعاويذ محترقة، راحت تتطايـر مرتبكة، تتزاحم فى الاركان، يسقط بعضها تحت أقدامنا مفرفـرة، دائخـة. عادت إليك رتبتك أخيراً.. رأيتك تنفض كتفيك مـن بقاياهـا وتتحسس بروز النجمات الست المقسمة بالعدل على جانبى رقبتك. ولأننى كنتُ عارياً تماماً، لم تمانع أنت بدورك حين طلـبتُ منك أن تخلع بذلتك لأنظفها لك. قلتُ لك – ولم أكن أكذب – إننـى أيضـاً خلعت لتوى بذلة الضابط التى عدتُ بها من شقة "سوسن" لأنظفها من الذكرى.

نحـن عاريـان الآن. ضـع فوهة مسدسك لصق جمجمتى، واضـغط الزناد. جرِّب، وستكتشف أن دمائى لن تسيل. لا بأس. لسـتُ خالداً.. ولكنى أعرف أنى لن أموت قبل أن يكتمل الديوان. أرغـب أن أنهيه بامرأة، لأننى بدأته برجل.. وسأترك لحضرات الضُـبَّاط قصة خلق من بقايا حبر ودماء. تخيل.. حتي المانيكان الصـغير الذى على هيئة طفل، والذى كان يحبو وحيداً بعد ما تاه عن السرب.. تركت فيه نصلي ولم يخذلنى: سالت منه الدماء.

أستطيع أن أقتلك بمطواتى.. رغم أن المسافة بيننا تُلائم طلقةً لا نصـل. المطـواة تجعلـك قريباً من ضحيتك.. تلتصق بها في لحظة نهايتها مستشعراً لذة التوحد تكون – بالتزامن– ملكاً لكما معـاً.. مقبضـها فـى يـدك، وذؤابـتها فى قلب الضحية.. أما المسدسات فيعرفها من يُغمضون عيونهم لحظة إطلاق النار.

هاقـد أطلقـت ثلاث رصاصات تسكن جسدي الآن. رأسي وقلبـى ويدى اليُمنى، ولم أمت.. لم تُغادر نقطةُ دمٍ واحدة خزانة جسدي..هل صدقت؟. أنت غبي أيضاً – شأن كل الضباط – لأنك اعتقدت أن إيقاف يدى اليمنى هو الذى سينهي مستقبلى كقاتل. لو كـنت تلـك بعـض الخيال – فقط قدراً قليلاً منه – لأدركت أن القضاء على اليُسرى هو الحل المثالي، بل الوحيد.

يصـحُ أن أجرب أنا بالمثل: أقذف المطواة باتجاهك، كهدف متحـرك، تاركـاً طعـنة متقنة فى قلبك.. ثم أتوجه إليك بهدوء وأنـزعها.. وأعـاود الكرَّة.. سبع مرات. بعدها ستخشاك الطيور إلى الأبد. ستصيرُ فزاعةً مغدورة، خيال مآتة مطعون.

قبل موتي سأتجول في المدينة لمرة أخيرة، وسأراها كما أحببت دائماً: حلماً غائباً في زرقة باهتة. وكمن يدير مشهداً بالتصوير البطيء.. سأرى السيارات أبطأ من السرعة العادية للمشاة، والمشاة يتحركون كالسلاحف.. المشهد الذى يستغرق فى الأحوال العادية دقيقة سيستغرق ثلاث دقائق على الأقل. بعد ذلك تأتي السرعة المجنونة التى تعجز معها عن متابعة أي شئ: السيارات فى تحركها العادى تطير، الناس فى مشيهم المتئد المستكين يجرون كأنهم فى سباق. المشهد الأصلى لن يوجد أبداً. بطء شديد. سرعة قصوى. بطء شديد. سرعة قصوى. هيا.. لماذا أنت صامت؟.. كرر خلفى: بطء شديد. سرعة قصوى. إن قلتها عشر مرات دون أن تخطئ لن أقتلك يا حبيبى. أعدك.

زوجتك اسمها "سلمى"؟. شبحها يتجول كل صباح فى الطرقات الضيقة للمدينة، بعيداً عن الميادين والشوارع الرئيسية. تظهر فى الصباح المبكر، تطرق شبابيك الأدوار الأرضية وتمضي. حين تفتح الفتيات الفقيرات - بشعورهن التى أحرقتها "الحنّة" الرخيصة - شبابيكهن تجد كل واحدة إصبع "زوج" ملائم تماماً للون بشرتها. كيف تعرف سلمى وجوه النائمات خلف النوافذ؟.

هكذا ترى سلمى بدورها المدينة كما تحب: طائرة ورقية مدفونة فى الرمل.

بعد قليل ستطرق سلمى الباب، وستقف بيننا. شبحان لامرأة قُتِلَت مرتين يقفان بين رجلين - فى الظروف العادية - وأربعة

فى حالة وجود مرآة. ستأمرنا أن يُعطي كل منا ظهره للآخر إلى أن تطلـــق صــــافرة البدء. ستغيب قليلاً، وتستغرق وقتاً أطول من المطلوب حتى نظنها نسيت.. وتحرق كل منا الرغبة فى الالتفات الطفولـــي لنرى ماذا تفعل. تكون هي ارتدت بعض الملابس وقد تذكــرت أنها جاءت عارية. تختار قميصاً وبنطلوناً من دولابى لا يلائمــان مقاييس جسدها. بعدها ستقارن بين مؤخرتينا العاريتين. جسدى كله حليق، خالٍ من أى شعرة. أزيل حشائشه يومياً كي لا تشــوش علـــى أيقــونات لحمي والأشعار التى تسكنه. مؤخرتى جمــيلة.. وبالنسبة لسحاقية، فإنها مؤخرة امرأة. زوجها مشعر.. حتى أن جسده من الخلف دغل معشوشب، رجلٌ حقيقي لدرجة لا تصدَّق.

أخيــراً ستفيق سلمى، تتذكر أنها تركتنا ما يزيد على الساعة: إصـــبعه على الزناد. أناملي على المقبض. تُطلق صافرة من فمها مدعــومة بإصـــبعين تحــت اللســان، لنتواجه أخيراً. أنت تُطلق الرصــــاص، وأنا أقذف مطواتى باتجاهك. لن أموت، ولن تموت أنت.

ســتموت "سلمى التى نسيت مغادرة مكانها بيننا. طلقتك في رأســـها.. مطواتـــي فـــي قلبها. هذه هى ميتتها الثالثة. لكَ زوجةٌ خالدة.. ياله من عذاب!.

سيرتدى كلانا بذلة الضابط التى لا تخصه وقد اكتشفنا أن بذلة كل منا تلائم تماماً جسد الآخر.. كما أن ذلك سيمنحك أقدمية لابـــد أن تكـــون متوفرة فى لحظة كهذه.. وفوق ذلك كله ستتخلى

عنك الطيور تماماً. ستزعجني أنا.. تحط على كتفي و رأسي بينما نغادر الشقة ممسكين معاً بجسد سلمى الذي لابد من إخفائه في الحال.. صرنا شركاء في قتلها كما كنا دائماً شركاء في جسدها. "**ضابط مباحث يقتل زوجته بالاتفاق مع عشيقها**" عنوان مثير. مُذهل. لا مانع من بعض العناوين الفرعية الشارحة. فرصة ذهبية لـ "هناء لتعلن عن موهبتها الصحفية في تحقيق جديد. "**القتيلة ماتت مرتين قبل ذلك في ظروف غامضة.** "**الزوج: قتلناها بعدما تأكدنا من خيانتها لنا.** "**العشيق: ارتدت ملابسي فجن جنوني وسددت إليها مطواتي.**

سنتوجه بسلمى إلى غرفة ليل الخالية منذ موته في قلب المقابر. لن تزعجنا الهمهمة الخفيضة للموتى. سيقترب جابر منا. سيتوجه نحوها ويداعبها بساقه الصناعية التي دبت فيها الحياة فجأة. سنتركها معا ونغادر.. وبمجرد أن تتركني، بينما تتثاءب، لأن لديك عمل في الصباح. سنتبادل البذلتين من جديد. ستعود لك الطيور التي صمَّت أذني تماماً ونقرت شعر رأسي ورقبتي.. لأراك تتحرك في العتمة يحرسك صخب الزقزقات والنعيق. هكذا سينتهي المنام.. الذي تراه الآن مثلي تماما، في سريرك، لتستيقظ مفزوعاً وقد تعرفت أخيراً على القاتل الذي تبحث عنه.. عرفت ملامح وجهه ومكان بيته.. ولكنك حين تتوجه إليه في الواقع، سيكون هو في انتظارك.. بعد أن أتم مهمته.

أنا – على العكس تماماً منك – استيقظت بسكينة غير مسبوقة.. لأول مرة منذ سنوات طويلة أنام بمثل هذا العمق..

وأرى حلمــاً قابلاً لأن يُحكى. وفوق ذلك.. حضرت العلامةُ التي أشار لها الناسك كثيراً فى مخطوطه، والتى قرأتها مراراً، مُنتظراً تمــثلها: ***قتــيلك الأخير ستكون علامة مجيئه نوماً مديداً بعد أزمنة أرق.. وأحلاماً متجسدة بعد نضوب صُور.. وسيكون الوحــيد الحــي بين أشباح المنام"*** حسناً.. كانت هناء تنتظرنا لــدى وصولنا إلى المقابر.. هي الوحيدة التى على قيد الحياة بين كــل من رأينا.. تجلس منزوية، عند عتبة باب ليل.. منهمكةً فى قراءة مخطوط عتيق.

بمجــرد أن رأتنــى اختفت، وسمعت صدى صوتها المخيف يردد فى أنحاء المقابر الخالية: **أنت**.

13

هناء تقف في النافذة.

امرأةٌ أخرى الآن، تخونها الظلال.

صرنا قريبين جدا، رغم أنني لم أرها منذ دفنة سلمى. تتابع بشغف حكايات القتلى. تكتب عن قاتل عبثي يقبض أرواح أشباحه. تذهب إلى مواقع الأحداث. شيء لطيف. صحفية نحيفة صدرها ضامر ومؤخرتها ضخمة جدا.

في الجريدة تواجه هناء محدثها بصوتٍ آمر، كأنها ليست المرأة التي تطالعه بنصف انحناءة، وتتركُ مؤخرتها تتطلع للخارج.

ها هي مومس مثالية تخترق صباحاتك يومياً: رقيقة، خدومة، تقود قطيعاً من الرجال في النهار بحسم، وفي الليل: هي الخادمة المتفانية، العبدة الأشد إخلاصاً في هذا العالم تحت ثقل رجل.. أي رجل. تقول لك اظهر أيها القاتل كأنها تدعوك لفنجان شاي.

تترك كل شيء لتتطلع إلى المدينة، لثلاث دقائق، بالضبط ثلاث دقائق. تتطاير أوراق الدشت تُحلِّق في سماء المدينة

أمامها وتمد ذراعيها لالتقاطها دون جدوى. بدأت الأوراق حياتها الخاصة. لا تعبأ. "**سأكتبها مرة أخرى**" تشخص من شرفة الدور الثالث والعشرين العالية هناك، تتطلع للقاهرة بما يليق بابنة بارة، بفريسة يهزمها الضوء.

لحظات هناء الحقيقية تعيشها في "الأسانسير"، مربع أحلام يقظتها الزجاجي. سلويت مخدوش تضاعف المرايا دكنته. تكتب بإصبع الروج روز بينك من ذلك النوع الذي تمنيته دائماً على الزجاج. لا أعرف على وجه الدقة كم مرة انفتح باب الأسانسير لأجد رجلاً يقبل هناء. هي تحب ذلك أكثر مما تحب الجنس. تلتقيه في الدور الرابع وتودعه في الدور التاسع، أو تلتقيه في السادس وتودعه في السابع. لا يهم المدة التي تستغرقها القبلة. المهم أن تحدث. ثم ينفتح الباب، وترتبك. هي تريد أن ترتبك وأن يوقن الداخل أن شيئاً غير عادي كان يحدث حتى انفتح الباب. تريد أن ترى وجهها في المرآة وهي تسوي خصلات شعرها بخجل وتضع ذراعيها متقاطعتين على الجيبة كأي امرأة فاضلة. تحب أن تراقب توجس الداخل، ارتباكه، مغالاته في احترامها، لأنه لا يريد أن يشعرها أنه يعرف أنها امرأة غير فاضلة على الإطلاق. إذا كان الداخل امرأة فذلك بالتأكيد أفضل: حسد، غيرة، حقد، نظرات متأففة تعكس رغبة شبيهة وعجزاً عن تحقيقها. الآن يعرف كل فرد في المبنى ذلك. لن يكون مدهشاً أن ينفتح باب الأسانسير بينما هي منهمكة في قبلتها. سيدخل المنتظرون بهدوء، يضغط كل واحد فيهم زر الطابق الذي

سيتوقف عنده، تاركين هناء في انهماكها كأن لا شيء يحدث. الآن، لم يعد يوجد فرد في المبنى ذي الطوابق الستة والعشرين لم يتذوق شفتيِ هناء في هواء المصعد البارد. أجيالٌ جديدة تواجه الحياة يومياً بشفاه ملوثة، في مكان ما هناك شفة واحدة مقسمة بالعدل على الجميع. بهذه الطريقة فقط تستطيع هناء أن تتجول في المدينة كأنها بيتها.

من النافذة الملاصقة لمكتبها تقطع هناء ببصرها المستشفى العسكري القريب، الكاتدرائية الضخمة، والملهى. هذا هو العالم في تلك اللحظات المختلسة ولا غير: أشباح جنود ورهبان خريفيون وبائعات هوى بلا زمن. تنسى في وقفتها مؤخرتها تماماً، تتركها بريئة وحُرَّة. تتطلع بعدها نحوي بوجه شاحب لضحية مبتلة، وتضحك. تضحك هناء بما يليق بمتأنقة: ربة عمل طالما لم تغرب الشمس، ومومس كل الليالي.

في الجريدة استقبلتني هناء بوجه محايد. خمنت أنه ليس نوعاً من عدم الترحاب، ولكنه قناعها في العمل. لو مددت يدي بغتة باتجاه وجهها ستلتصق الطبقة الرقيقة بكفي. سأواجه التجاعيد الأصلية لامرأة وحيدة. أمامها كومة من أوراق الدشت منهمكة في كتابة شيء عني.

مساء الخير.

- مساء النوور.

قالتها كقاهرية أصيلة. ممطوطة بعض الشيء، لا تخلو من حميمية غير أنها تبقى محايدة.

أنا سالم.

ـ طبعاً. أهلاً بيك. اتقابلنا قبل كده.

في المدرسة قالوا لي: فيه صحفية جات هنا تحقق في القتيل.. واتخانقت مع ظابط المباحث علشان كانت عايزه تكشف الغطا عن وشه. بتْ دَكَر كده.

لم أكن موجودا حينها. جئت بعد أن انتهى كل شيء. لو تقابلنا ربما كشفَت هناء أمري. رجل لا تقابله إلا في وجود جثة. رمل الفناء الساخن يشبه تراب المقابر. نفس الهواء الداكن، النبتات الشيطانية. الظهيرة الخشنة، والقاهرة التي لا تعبأ. ربما أيضا ارتدت يومها نفس ملابسها في لقائنا الأول. بل بالتأكيد حدث ذلك.. لأنني توجهت إلى المدرسة يومها بنفس ملابس دفنة سلمى.

تحت زجاج مكتبها صورة نصفية لفتاة محجبة. تشبهها. الحاجبان كانا أكثر غلظة. وجهها أقل شحوبا.

ـ دي إنتي ؟

ـ أيوة.

انتي كنتي محجبة ؟

ـ لغاية تالتة جامعة.. بعد كده فكيت.

و ضحكت.

كدت أن أخبرها أنني حلمت بقتلي لها، وإن يدي اليسرى تتألم.

ـ معاك سجاير ؟

أخرجت سيجارتين، لي ولها.

ـ وعامل ايه ؟

تمام.

ـ قلتي يومها هنتصل ونقعد ونتكلم.

ـ معاك حق... معلش..... آديك شايف !

بمجرد أن أشارت للورق تطاير.. قفزَت من مقعدها بعصبية وبدأت تلملمه. وصل الحوار لنقطة نهاية. مرحلة المجاملات انتهت. بالتأكيد تريد أن تسألني عن سبب مجيئي.

انت عرفت منين اني بشتغل هنا ؟

انتي قلتيلي يوم سلمى.

ـ فعلا ؟.. ممكن.... يومها كنت متدمرة.

....

ـ ولاً سلمى اللِّي قالتلك ؟

ـ سلمى كانت مدياني فكرة.. لكن انتي كمان قلتيلي.

تحب الأدوار العليا. لم يعرف القاهرة من لم يطل عليها من شرفة تصلح لسقوطه. تضع هناء إذن روج روز بينك مثل المرحومة سلمى.أيهما تقلد الأخرى ؟.

عادت للكتابة. تكتب بيدها اليسرى. مصادفة غريبة. تكتب بيدها اليسرى عن قاتل يكتب بيده اليسرى. كم شخصاً قتلته هناء باليمنى ؟. لها عشيق. سلمى أخبرتني بذلك.

لون عينيك مختلف يا مدام. سوداوان اليوم. أنت من عاشقي العدسات اللاصقة إذن. يوم سلمى الله يرحمها كانتا زرقاوين، أو ربما رماديتين، لم أنجح يومها في التحديد. تنظر إلي هناء الآن بحدقتي شخص آخر غير الذي رآني هناك. زوج العدسات في المحلول، على سطح المكتب. شعرت أن ذلك لا يصح، لا أعرف لماذا. من الممكن أن تكون قطعة من ملابسها الداخلية منشورة على حافة النافذة الملاصقة لظهرها. تطمئن ـها كل حين. تتحسسها بيديها وتتشممها **بعمق**.

- سلمى قالتلي انك بتكتب شعر.

أيوه.

- نشرت حاجة ؟

شغال في ديوان.. فاضل فيه قصيدة واحدة.

الكتابة دي طلوع روح.

برقت العبارة في ذهني. أربكتني. فذة هذه المحطمة. ولكنني قلت بهدوء

فعلا.

أنا كنت بكتب شعر أيام الكلية.

وبطّلتي لما فكيتي الحجاب ؟ هههههه.

استقبلَت دعابتي السمجة غير المحسوبة بتعبيرٍ خاو.

تجيبلنا حاجة بقى.. إحنا بننشر شعر.

قالتها بابتسامة مُجاملة، كأنها تتحدث إلى طفل.

- أكيد.

تحت الزجاج أيضا شهادة تقدير. أفضل تحقيق صحفي. جميل. ما شاء الله ما شاء الله.

مشهد القاهرة أفضل من هنا، لو جربت الوقوف على حافة سطح بيتي. كل الناس جيرانك. بورجوازية صغيرة وفارغة، تتطلعين إلى حفنة أرواح تتألم. يكاد الفضول يقتلها لأطلعها على المخطوط، لأحكيْ لها حكاية الناسك، أو لتقرأها هي لتعرف من ستكون ضحيتي القادمة. لا تُصدق أن مخطوطاً مهترئاً يحدد حياتي، أن حفنة حكايات في مجلد مصفر قادرة على أن تجعلني أحمل مطواتي وأقتل شخصاً وحيداً في كل مرة لأخلص قطعة جديدة في روحي.. لأكتب قصيدة جديدة في ديواني.

ستترك هناء كل ذلك وتسرح مع "ليل البعيد في جلسته. تعرف أنه يراقبها. تعرف أنه يعرف أنها في تلك اللحظة تنظر إليه وتفكر في شكله كعاشق، كمجرد رجل في سرير. هاهو إله مغدور آخر يرقد معزولاً في قسوة كفيه المتألمتين. يقولون إن شبحه لايزال يجلس تحت الشجرة الوارفة الضخمة، يزوره شبح جابر ويتبادلان همهمات خفيضة غير مفهومة.

- مين اللي واقفة في البلكونة في وشك دي ؟

دي المرحومة جارتي.

- دي بتطلّع من جيوبها ورق وتاكله.

جوابات.

- وبتنشر الهدوم ليه بدري كده ؟

تعرفين يا هناء أنه في الفجر يستيقظ الموتى، كما تعرفين أن الموتى جميعا أخوة.

ثلاث دقائق فقط تصل فيها هناء بعينيها إلى بورسعيد. تغلق عينيها. ***ليس في الدنيا من هو أكثر وحدة من امرأة تتذكر***. تغلق بعدها الشبابيك بينما أريد أن أسألها ***ماذا لو فتحنا كل النوافذ؟***.. سيدخل الضوء عدوانياً بعض الشيء، وبعد قليلٍ سنتعوده، كقدرٍ يجعلنا نواجه الأشياء دون غطاء. قد تعبر بعضٌ الكائنات أيضاً، لعلها حيوانات بائدة أو طيور سماوات سحيقة مضت.. أحجار قذفها معبد أو شمعدانات فارغة مقتلعة من حائطٍ دير. تتشابه في الضوء وتذوب ملامحها. وحدها بقايا الفراء والريش ونثارات الرمل والمعدن ستظل احتمالاً مُبيَّتاً لرفيفٍ مفاجئ... لرعب لن نملك حياله سوى التسحب على أطراف الأقدام بحثاً عن باب.

متى جئنا إلى تلك الغرفة؟ لا نعرف. لماذا جئنا وعن أي شيء كنا نبحث؟ لا أحد بإمكانه الإجابة. لقد وُجِدنا فقط، كأننا برزنا من العدم مثل كائنات تواجه الحيرة التي تسبقِ الرقص.

تخبرني هناء أن المكان قريبٌ من البحر. تخرِج الكبسولة البنفسجية وتقسمها إلى نصفين: نصف في فمها.. نصف في فمي. تمدد ساقيها بينما أقرفص كأسير. نتخيَّل: قراصنة.ثملين في الشفق، يودعون الميناء ويستقبلون الحانة، وديعين كالهارب من فضيحة ما. قليلٌ من الصمت ثم يبدأونِ الثرثرة، ويدخنون بشغف. لكلِ منهم عين واحدة مبصرة كما علّمتنا القصص يستعملونها في لحظات الحب القليلة التي يحتفظون بها للعالم. العين الأخرى،

الحدقة السوداء التالفة، هي ما ادخروه ليستطيعوا مواجهة العالم الحقيقي دون أن يُفرِطوا في التأثر. تهتز "اللمبة" فوقهم ويتركهم اهتزاز الضوء الشحيح مرتبكين فجأة. ثم يتعاركون. يقتسمون الغنائم قبل الحصول عليها ويخرجون تاركين قتيلاً بالداخل، بينما يُخلِّص النادلون أوراقهم النقدية من نقاط الدم الساخنة.. وبعد قليل تتداولها المدينة، تصير في يد كل شخصٍ ورقة نقدية بدمٍ جاف متيبسٍ يحيا في تجاعيدها.

تَخرِج هناء "ورقة بعشرة"، تفردها أمامي، تتركني أقشر البقعة الداكنة المستقرة على وجه الفرعون الشامخ. نفس الورقةَ كانت ذات صباح بين أنامل بائعة ورد فقيرة. أتحسسها بين إصبعي الإبهام والسبَّابة. أتلمسها بشبق مغمضاً عيني. أقول لها: "**هذا دم امرأة**" لا تصدقني، تستغربني، ولا أقدم تفسيراً.

كانت المدينةُ على حالها عندما اقتادونا: صفوف المهرجين تتعرى ببطء، المومسات يستقبلن زبائنهن من الغرباء، الريفيون يلوذون بالحوائط وتظل أكفهم تتحسسها في مُضيِّهم.

كل الأشياء كما هي: الحدائق عامرة ببقايا طعام العائلات بعد نهار النزهات البريئة هذا. هياكل أسماك السردين تعوق السيارات عن السير بشكل طبيعي، والشبح الليلي الذي لم يحن موعد مجيئه بعد، يقف ملطخاً بأصباغ العالم، لا ليسرق الأطفال كما اعتقدت الأمهات والزوجات الحديثات لكن ليمنح الشفاة سعادة غامضةً في عتمتها.

المكان قريب من البحر.. تردد هناء، بينما لا زالت تستحلب نصيبها بسيل لعابها الجارف، أنا ابتلعت حصتي بسرعة، تركتها لسوائل المعدة. أقول أنا بالتأكيد" كنا نلمح قوس أضواء الشريط الساحلي الممتد إلى لا مكان، واستنشقنا رائحة يود، بل إن الموج راح يزورنا من حين لآخر في موجات قوية، مهشماً في كل مرة قطعة جديدة من زجاج النوافذ، بمفاجأة كتل ملح وصخور، وشوشات محار وفلول أسماك.. وتمنينا في المرة القادمة أن يحمل لنا غرقى. كنتُ أريد أن أقول لهناء: ***ماذا لو فتحنا كل النوافذ؟***.. كنت أريد أن أجيب: ***لن يحدث شيء***. سنظل أسيرين لتلك الغرفة، كقدرٍ مكتمل لا تعنيه مصادفات العالم غير المنتهية.. وسيحتضر الضوء ونكنس الكائنات بمقشة، ولكننا سنرى وجوه بعضنا البعض بوضوح. سيعرف كلانا أنه كان يتحدث طوال الوقت لواحد من اثنين: ميت أو عدو، وحينها.. لن نستطيع أن نخمن أيُّنا سيكون القتيل الأول الذي سيقع عليه اختيارُ الباقين.

بحذر، أفضُّ "الرباط الضاغط" عن كف يدي اليسرى. يدٌ كاملة، راحة حقيقية لها خمس ذؤابات، يدٌ أتعرف عليها الآن فقط كأنها لم تكن ذات يوم لي.. لا تبدو أبداً لمن يراها مختلفة عن أي يد في العالم: تلك التي تلوِّح وتُصافح وتضرب وتقتل. الآن أريد أن أكتب، بل لابد أن أكتب. هناء لاتزال في الشقة.. تتعذب وحيدة في السرير.. في انتظاري.

أفعل الآن مثلما يحدث في الأفلام القديمة.. أترك سيل المياه المائل ينهمر من السبعة وثمانين ثقباً في "الدُش" على أرضية البانيو الملساء، وأجلس على المرحاض، بيدي أوراق بيضاء وقلم "جيل" أسود ذو سن سيَّال، سخي، حبره المُهدر الذي لا يجف سريعا يلائم مزاجيتي. تنتظر هناء مغادرتي الحمام بعد "الشاور السريع. ماذا لو جلست ساعة مثلاً.. ساعتين.. ليلة كاملة؟.. ماذا لو انتهيت في وقت مناسب عشر دقائق على الأكثر وانضممت لها في السرير، واكتشفت هي دون أن تحتاج لأن تستنشقني بعمق - أنني لم أستحم، لم يقرب الماء لَحْمِي؟

هناء لن تنام، ولن تغادر الشقة، ولن تطرق باب الحمام لتستعجلني مهما تأخرت. حتى لو بقيت ليلتين ستظل تنتظر على يقين بأنني أستحم، ولن تندهش حتى، ستعتبره أحد طقوسي: أن أستحم لليلتين متواصلتين.. وحتى لو مت لن تتعرف على الرائحة إلا بعد اقتحام الجيران للشقة بالقوة. سيجدونها جالسة كأن جثةً لم تتعفن على بعد أمتار منها، تستنشق الهواء الميت القادم من حمام لم يتوقف هطول المطر فيه منذ أيام.. سيحدث ذلك بعد أن يكون هذا الهواء نفسه قد تسلل لكل الغرف المغلقة بامتداد شارعين.

هناء الآن مشغولة بالصداع النصفي، لا يؤرقها بقدر ما يدعوها للتفكير فيه. دماغها تكاد تنفجر. صوت "تكتكة" أزرار "الكيبورد" الأليفة لجهاز الكمبيوتر الذي تعيش نصف حياتها معه في العمل، الصوت الأليف، نصف الصامت، الذي لا يشبه أبدا

ضجيج "الآلة الكاتبة" مثلاً، والتي استعملتها هناء لسنوات.. هذا الصوت هو فزعها الشخصي، لعنتها الذاتية.

تفكرُ في تناول نصف قرص جديد، لكن هذا يعني ميتة مبيتة، سيجيء الجيران أيضاً ويكتشفون جثتها. بينما أنا في الحمام منشغل بيدي التي تكتب وقد بلغ الماء عنقي. هناء الآن في القاهرة.. بورسعيد بعيدة. حتى النيل هنا ليس إلا شارعاً أزرق.

يدي اليسرى متيبسة بعض الشيء. لم أخرجها من سجنها منذ ثلاثة أشهر.. وإذا شئت الدقة.. منذ ستة وتسعين يوماً، ذات ثلاثاء. كنت أريد أن أكملها مائة. نعم.. مائة يوم كاملة لا تتنفس فيها يدي، لا تصافح الضوء.. غير أنني فعلتها الآن. الرباط الضاغط" متسخ جداً، خرقة لها لون شمس تغرب، لكن بلا شجن خاص. يجب أن أغسله جيداً أو أستبدله بآخر جديد. لا.. لن أغسله، لن تنتظر يدي يوماً كاملاً في العراء حتى يجف، دائماً أطرح هذه الفرضية وأنسى ـ للحظات استحالتها. لي حلم كبير، أن أضع يدي مستقبلاً داخل جبيرة سميكة من الأسمنت، مقبرة مفتولة.. تكريم لائق بيد أحيلت للتقاعد، يد لم ترفض العمل القليل الذي أوكل إليها في عمر كامل. حينها سأترك للناس فرصة نادرة لحفر تذكارات ورسم قلوب تخترقها أسهم وكتابة عبارات لذكرى قد تعيش بعد أن يجرد الحانوتي يدي من صدفتها، ويتركها عارية مثلي في المقبرة. لن يرضخ أحد لإرادتي إن أوصيت بأن تدفن في جبيرتها، ستكون مقبرة داخل مقبرة. إذا شعرت بقرب الموت فقط إذا تمكنت من معرفة لحظة مجيئه على وجه الدقة سأبترها وأخبئها.. وهذا لن يحدث إلا إذا قتلت نفسي، وهو ما لم

أقرره حتى الآن، وحتى لو فعلت، هناك دائماً تلك المسافة بين اتخاذ القرار وتنفيذه، هناك دائماً موت مفاجئ قادر على أن يدركك: سكتة قلبية أو دماغية، حادث مشي أو سيارة، اختلال التوازن على درجة سلم مكسورة أو نداء غامض يشدك لأسفل بينما تدخن سيجارة في البلكونة.

كتبت سطراً واحداً بعد ثلاث ساعات، واكتشفت بعد أن وضعت التاريخ والتوقيت تحته أنه لشاعر آخر: "***أنا من الذين كلما مشوا.. ابتعدت أحلامهم أكثر***"

بمـــرح تلوّح هناء بالمطواة في وجهي. تدير حلقتها المعدنية بـــين أصـــابعها بحنكة. تشق بها الهواء في استعراض محسوب، تاركـــة الصوت الخاطف الأليف يداعب أذني. لاعبة مدربة جيداً. المخطوط مُلقى بإهمال على الكنبة. قصائد الديوان متفرقة بإهمال علـــى الترابيزة. فعلت كل شيء إذن.أنا منحتها الفرصة لذلك. ما كان يجب أن أتركها وأدخل الحمام، وحتى لو حدث، ما كان يجب أن يستمر مكوثي أكثر من دقائق. يدي اليسرى غائبة في إخفاقها. فشل جديد. لأول مرة تمتد على يد شاعر آخر. ربت عليها طويلا وقلـــت أنا السبب.. لا عليك. حاولت إقناعها أن غيابها الطويل مـــن الطبيعي أن تكون له بعض الآثار الجانبية، بل إنني قلت لها، ويعلم الله أنني لم أكن أكذب هذا السطر سأستعين به في الديوان وأشـــير إلـــى صاحبه. لم تفلح كل محاولاتي. أشعر بها مهزومة. ارتفعـــت درجـــة حـــرارتها فجأة، ثم ابتردت بعد دقائق، تيبَّست كقطعة ثلج. حُمى.

تتبقى قصيدة واحدة ثم تغمضين عينيك إلى الأبد يا صغيرتي. كـنت تريدين دوما أن أدق عليك الأوشام وكنت أرفض. سأفعلها قريبا. سأحيلك للتقاعد بشكل لائق.

اقتـربَت منـي هـناء أكثر وهي تضحك. تغلَّبَت على ملل انـتظاري بالتخلص من ملابسها قطعة قطعة.. ومع كل اكتشاف لهـا لـواحد من الضحايا كانت تقذف بقطعة جديدة من البلكونة. تطلَّـع الناس لأعلى. ماهي إلا دقائق حتى عرف الجميع أن هناك امـرأة في شقة العازب تتعرى في البلكونة. ربما كانت هناك الآن جمهرة بالأسفل. عرض استربتيز مجاني. ترتدي الآن مايوه مـن قطعتين. منعني خجلي أن أطلب منها تثبيت الشمعدان الذي فـي ركـن الصـالة علـى رأسها، أضيء أعمدته، وأُشعل منها سجائري بينما هي ترقص عارية. في اقترابها أكثر بدأت تتخلص مـنهما. عـندما وجَّهَت المطواة نحو وجهي، بين عيني، كانت قد صارت عارية تماما.

تـركت خـيط الدماء ينساب على وجهي طولياً، ليقسمه إلى وجهين.

بطرف لساني بدأت أتذوق دمي للمرة الأولى.

الجرحُ ليس غائراً ولكنه خالد.

انحنـيت والـتقطت ماتبقى من ملابسها. طوَّحت القطعتين الصـغيرتين إلى المنتظرين في الشارع، ثم انتزعت المطواة من بين يديها بخفة، لأكتب قصيدتي النهائية.

القاهرة ٢٠٠٢-٢٠٠٧

صدر للكاتب

١ – طـيور جديدة لم يفسدها الهواء – قصص – دار شرقيات – القاهرة – ١٩٩٥.

٢ – شارع آخر لكائن – قصص – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – ١٩٩٧.

٣ – ملك البحار الخمسة – قصص للأطفال – كتاب قطر الندى– القاهرة –٢٠٠٠.

٤ – شريعة القطة – رواية – دار ميريت – القاهرة – ٢٠٠٣.

Tarek_emam_74@hotmail.com

www.tareqemam.blogspot.com

تجليات أدبية



بيده اليمنى يقتل «سالم» – القاتل المتسلسل الغائب فى رؤاه –ضحاياه، ليكتب بيده اليسرى قصيدة جديدة مع كل ضحية.. تاركاً سطوراً من الدماء تحيا بامتداد المدينة. و مدفوعاً بيقين غريب، يعثر «سالم» على مخطوط عتيق لناسك قديم مجهول، يصير نبيَّه الشخصى، يقود روحه، ويتخذ من مخطوطه كتاباً مقدساً يدير له حياته الخاوية. «هدوء القتلة» رواية هى مزيج من الواقع والخيال فى عينى فرد متوحد لم يعد يملك من العالم سوى بقايا حبر ودماء. وهى –على جانب آخر– نص «القاهرة» التى تبدو هنا أشبه بمدينة تحيا حلم يقظة شاسع، بما يجعلها مكاناً متخيلاً بقدر ما هو قائم متاح. القاهرة هنا خلاء يحيا أشباحه على هامش الصخب، بوحدة مُضاعفة، حالمين ومعزولين ومغمورين بضوء فوق واقعى: «ليل» الإسكافى العجوز والقاتل المتقاعد، «جابر» الشبح ذو الساق الصناعية، «سلمى» التى تُقتل مرتين، «سوسن» الأرملة الوحيدة التى تحيا مع بقايا ملابس حبيب من قرن مضى، وغيرها. عالم غرائبى يرصده «طارق إمام» فى عنفه وصوفيته، عبر راو يدير الوجود بمطواته تحت يقين أنه نبى ضد.. بينما يحيا صراعاً آخر تديره يداه اللتان تكاد إحداهما أن تفتك بالأخرى.

إذا اكتملت القصيدة بين يدى «سالم» سيكتمل العالم بفنائه الشخصى.. هذا هو رهانه المستحيل فى حياة لا تُطلع المرء على جانب من وجهه، إلا لتترك فيه نُدبة.

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف: أحمد اللباد



ميريت